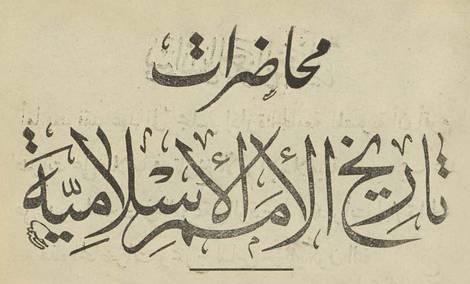


محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٤ هجرية

مطبعة الاستقامة
بشارع أم الغلام رقم ١٤ بالحسين

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٤ هجرية

مطبعة الاستقامة
بشارع أم الغلام رقم ١٤ بالحسين

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد عهد إلىّ مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها فى تاريخ الأمم الإسلامية فقمت بما عهد إلىّ به على قدر مامنحت فى العزيمة والوقت ، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد فى تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وها هى ذى تعرض على المؤرّخين ورجال العلم ، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهى صعوبة استفادة التاريخ العربى من كتبه .

هذا وإنى أعلن شكرى الوافر وثنائى العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نلته من ثقته حتى اعتمد علىّ فى أداء هذه المهمة وأخص بثنائى وإخلاصى رجل الهمة والعزيمة الأمير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة الذى بثاقب نظره وقوّة عزيمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الأمام . فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويسدّده فى القول والعمل إنه نعم المجيب ؟

محمد الخضرى

---

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدّد الله خطاه وأبقاه ذخراً لمصر خاصة وللإسلام عامة ، وأقرّ عينه بولى عهده المحبوب سموّ الأمير فاروق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى

فى التاريخ الإسلامى

مباحث التاريخ الإسلامى — مايلزم المؤرخ — جزيرة العرب
ووصفها — شعب قحطان ومقاماته

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذى جاء به سيدنا محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لأن تسيح إلى ماجاورها من الأقاليم وتؤسس سلطانا واسعا يرتكز على دعامة ذلك الدين فمؤرخ الإسلام يرجع بحثه إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضا الأول - الدين الإسلامى وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التى وقفت فى طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثانى - تأثيره فى النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ماجاورها من الأقاليم وماكان منها فى سبيل ذلك من الحروب والأعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقادا إلى سلطان الدين

الثالث - ماكان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التى دانت بالإسلام وماكان الدين من التأثير فى قيام دولة وسقوط أخرى وفى حضارة الأمم التابعة لسلطانه

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثر به لأول مرة هم العرب لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة إجمالية فى تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجىء الإسلام لتكون أمامنا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أنا سنقدم كلمة صغيرة فى أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم فى حوادثه تحكما تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ فإن عاطفة الحب تجعل كل ماليس بحسن حسنا وتجتهد فى تأويل

الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتى ماأدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته . وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستنبط من الخير شرا ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذى يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم الانفر قليل جدا . وإذا نظرنا إلى أنفسنا نجدها لاتحكم على شيء من الحوادث التى تشعر بها حكما بحسب ماتستحق فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسنا جميلا والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوإ محامله : نحكم على متصدق بالتبذير لأنه تذكر الفقراء والمعوزين فى حال رغده ولانأبه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمه بأنه مراء يحب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف فى دراسة التاريخ أمر صعب المنال لايصل اليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لابدّ له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الأمم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون

فلا بدّ أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت فى بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطإ شيء ، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة فإنّ ذلك لاينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل مايرد على تاريخ قومه من نقد حتى لاتبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتى الحب والبغض

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الأرض التى نشأوا فيها «جزيرة العرب» مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء كما قال ياقوت [١] فى معجم البلدان نقلا عن هشام [٢] بن محمد السائب عن ابن عباس [٣] إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من

---

(١) هو ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى الأصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة فى التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الأدباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة فى النقل توفى سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب (٢) نسابة عربى له كتاب الجمهرة فى النسب وله مصنفات كثيرة كلها فى أخبار العرب توفى سنة ٢٠٤ (٣) هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب جدّ الملوك من بنى العباس . من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفى فى خلافة ابن الزبير سنه ٦٨

جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها فى مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن الفرات [١] أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين [٢] ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة [٣] والأبلة [٤]
وامتد إلى عبادان [٥] وأخذ البحر فى ذلك الموضوع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها فأتى منها على سفوان [٦] وكاظمة [٧] إلى القطيف [٨] وهجر [٩] وأسياف البحرين [١٠] وقطر [١١] وعمان [١٢] والشحر [١٣] ومال منه عنق إلى حضرموت [١٤] وناحية أبين [١٥] وانعطف مغربا منصباً إلى دهلك [١٦] واستطال ذلك العنق فطعن

---

(١) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبا معاً فى خليج عمان من بحر الهند (٢) قنسرين مدينة جنوبى حلب وكانت اسماً لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ

(٣) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريباً من المصب فى خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ

(٤) بلدة على شاطئ النهرين فى زاوية الخليج الذى يدخل مدينة البصرة

(٥) مدينة فى الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة فى خليج عمان منسوبة إلى عباد ابن الحصين وكثيراً ما ينسب أهل البصرة بإضافة ألف ونون إلى آخر المنسوب إليه (٦) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين (٧) جو على سيف البحر وهى المنزلة الثانية فى جادة البصرة إلى البحرين (٨) مدينة بالبحرين وهى قصبتها (٩) مدينة بالبحرين وقيل وهى اسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا (١٠) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هى وعمان فى أيام بنى العباس عملا واحداً . وسيف البحر ساحله (١١) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر (١٢) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند وتنتهى إلى البحرين وقصبتها مدينة صحار (١٣) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان (١٤) ناحية واسعة فى شرقى عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى شبام (١٥) مخلاف باليمن منه عدن (١٦) جزيرة فى بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منفى فى زمن بنى أمية

فى تهائم اليمن بلاد فرسان[١] وحكم[٢] والأشعريين[٣] وعك[٤] ومضى إلى جدة[٥] ساحل مكة والجار[٦] ساحل المدينة ثم ساحل الطور[٧] وخليج ايلة[٨] وساحل رايه[٩] حتى بلغ قلزم[١٠] مصر وخالط بلادها وأقبل النيل فى غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضاً للبحر حتى دفع فى بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين[١١] فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور[١٢] ثم سواحل الأردن[١٣] وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة[١٤] إلى سواد العراق

وهذا التحديد وإن كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضى أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عند المؤرخين فإنهم

---

(١) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبى

(٢) قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب إليهم أبو نواس الحكمى (٣) قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعر بن ادد من كهلان بن سبا ينسب إليها أبو موسى الأشعرى (٤) قبيلة قحطانية تنسب إلى عك بن عدنان من الأزد ثم من كهلان (٥) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة

(٦) فرضة على ساحل بحر القلزم وهى جنوبى ينبع (٧) شبه جزيرة فى شمال خليج القلزم وهى كورة مصر (٨) مدينة على ساحل بحر القلزم وهى آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجادة بين مصر ومكة (٩) كورة من كور مصر البحرية (١٠) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدئ من المندب وبها سمى الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التى كانت على بحر الروم مقدار القناة والأولى فى مكان السويس والثانية فى مكان بورسعيد (١١) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها البيت المقدس ومرفؤها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان (١٢) مدينة من أعمال الأردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ (١٣) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والأردن نهر يصب فى بحيرة طبرية (١٤) وهى الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أقور

يحدّون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان خارجان عنها وإن كان العرب قدسكنوا قبل الإسلام جزءاً مهما من بلاد سوريا كما سكنوا جزءاً من الجزيرة وعلى ذلك لابد من القول أنّ هناك تسامحاً فى إطلاق لفظ الجزيرة فى البلاد العربية

أقسام الجـــزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهى :

تهامة ـ الحجاز ـ نجد ـ اليمن ـ العروض

فأما تهامة ويقال لها الغور فهى الأراضى التى على شاطئ بحر القلزم ممتدّة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدّة حرّها وركود ريحها من التهم وهو شدّة الحر وركود الريح : يقال تهم الحرّ إذا اشتدّ وسموها غوراً لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدّة من أقصى اليمن إلى الشام فى عرض أربعة أيام [1] يزيد كسر يوم فى بعض المواضع وقد ينقص مثلها فى أخرى فيبدأ هـذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهى قبيلة قحطانية كانت تسكن شرق عدن ثم تمتدّ حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان فى بعض جهاتها ، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلى شرقيـه يبتدئ جنوبا من أدنى حدود اليمن وينتهى إلى السماوة وينتهى من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمى نجداً لارتفاع أرضه

وأما اليمن فهو ما كان جنوبى نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد شرقا إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمـامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيـه وسمى عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلا أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤م لأن محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ك وتكون الأربعة أيام ١٤٢ك تقريباً

الوصف الطبيعى لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرة وهى الجبال السوداء التى كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان أعدتها السيول ليجرى فيها ماؤها والصحارى الرملية المترامية الأطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى فتمكن أهله من الإقامة فيه حيث يجدون مايشربون ويسيمون فيه أنعامهم ومابعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى فى بلاد ابنى تميم ببادية البصرة يمر فى بلاد بنى أسد فيسمونه منعجا ثم فى غطفان فيسمونه الرمة ، وهو أول نجد . ويصب فى الرمة أودية أخرى أكبرها وادى الجريب والعرب تقول على لسان الرمة

كل بنى فإنه يحسينى * إلا الجريب فإنه يروينى

ثم يمر فى بلاد طىء فيسمونه حائلا وهو واد فى جبل طىء ثم يمر فى بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم فى بلاد تغلب فيسمونه سودى وإذا انتهى اليهم عطف إلى بلاد كلب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل فى سواد الكوفة ومتى أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها ، طيبة التربة ، طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها مايقطع السراة حتى ينتهى إلى البحر ومنها ماهو على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادى مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ويتلوه فى العظم وبعد المأتى وادى زبيد ، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن الشرقى وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع السد سد مأرب ويسقى بعدها أرض الجنتين وأرض السبئين

وهناك وديان كثيرة فى الجوف بين الجبلين

العرب تسمى المواضع التى يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم

خاص بما يكون فى الأرض الواطئة فإن كانت فى أعالى البراق [١] والقفاف [٢] فهى السلقان واحدها ساق وإذا جاءتها المياه أنبتت ضروبا من العشب والبقول لايسرع اليها الهيج والذبول وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمى [٣] ربعت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا فى ميل فإذا عرضت جداً فهى قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ إما فى روض وإما فى واد. وحدائق الرياض ماأعشب منها والتف وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة فى جهات مختلفة وهى المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء.

ولما كانت مياه هذه الأودية لاتسدحاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها ولاسيما أن كثيراً من مياهها يغيض فى باطن الأرض فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التى أمكنها فيما مضى أن تتحكم فى مجارى الوديان فتوجهها إلى جهة ثم تبنى سداً محكما يحجز الماء خلفه فى أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ويغيض فى الأرض ولهذا عدت اليمن قديما من البلاد الخصبة المستعدة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الأشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فإن شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التى لاتروى إلا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ فى بعض سهولهم القريبة من الوديان ـ وأما نجد والعروض ففيهما وادى الدهناء وما يصب فيه من صغار الأودية، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن الكثير من

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ماارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا (٣) وسمى أول مطر يصيب الأرض والثانى يسمونه الولى

مائه يغيض فى الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل

ومن هنا قلما كان العرب فى بواديهم يبقون فى مكان واحد وإنما يتبعون مواقع القطر أنى كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها

وحاجة العرب الدائمة إلى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان ـ بحكم الضرورة ـ عدم الاعتماد على ماتنبته الأرض من المزروعات الدورية التى لاتصلح للإنسان كان جل اعتماد أهل البادية على إنعامهم ولاسيما الإبل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل أثقالهم فى تلك الصحارى المقفرة إلى مايرومون من الجهات أما بلاد اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أى جهة أخرى فى الجزيرة لأن تمدين المدن فى غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جو البـــلاد

أما ما كان من الجزيرة تهامياً يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر فى الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصاً الحرار منها السوادلونها ويشتد بالجبال البرد فى الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الأمثال

أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسايل المياه فإن الهواء يكون به معتدلا ومابعد عنها حره أكثر.

وجو اليمن وهواؤه معتدل فى فصلى الشتاء والخريف ، أما الربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التى تستمر زمناً طويلا ويشتد به الحر فى فصل الصيف

محاج الجزيرة

فى هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى إلى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فإنهم إذا عرفوا بقرية أوجهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هى على جادة البصرة أو الكوفة أوعن يمين السائر إلى البصرة أوالكوفة فإن لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى سنة ٣٢٤ فى كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها ومابين كل منزلتين من الأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيدالله بن خرداذبه فى كتابه المسالك والممالك. ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها إلى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلا، وجادة الكوفة إلى مكة وهى تفارق الأولى من معدن النقرة فى الشمال الشرقى من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلا منها

وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة وهى تتحد مع جادة الكوفة فى معدن النقرة الذى يلى منزلة النباج وجادة البصرة إلى مكة ولا تمر بالمدينة ومنها فى الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ : وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها محجة عدن تلتقى مع محجة صنعاء فى منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة ولحضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء فى صعدة ومنها السفلى وتتقابل مع محجة صنعاء فى تباله وتمر على نجران

ومنها محجة البصرة إلى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

﴿الشعوب العربية﴾

العرب قبائل شتى ترجع فى نسبها إلى شعبين عظيمين الأول شعب قحطان والثانى شعب عدنان

فأما شعب قحطان فمهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وأولاد جفنه ملوك الشام :

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف إلى اسم القبيلة التى اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافا

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا فى الاستفادة بمياه السيول التى تنقذف فى الوديان فيذهب الكثير منها هباء فى جوف الأرض أوفى البحر فأقاموا بمأرب سداً

وصفه ياقوت نقلا عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكأن الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة الرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقى زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا

ويظهر أنه لما تطاولت الازمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ قم كما قاله العالم سيديو

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فمنهم من يقول إن هجرة أهل مأرب كانت قبل أن ينهدم السد ، لأن كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال إن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت

ونحن نرجح الرأى الأخير لسببين

الأول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملا خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره

الثانى أن الكتاب لما نص علينا هذه القصة فى السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) فهذا واضح فى أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وممن سار على هذا الرأى العالم سيديو

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأى كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقيا سيد ولد الأزد من كهلان خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا ينتقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بنى إسرائيل متفرقون فى نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسوا النخيل ، والذى من أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة

وتخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو — وهو خزاعة — بمن معه وافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان

وسارت قبائل نصر بن الأزد — وهم قبائل كثير — نحو تهامة وهم أزد شنوءة

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بنى أدد بن زيد قبيلة لخم بن عدى الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا — عمرو ابن عدى بن نصر الذى ملك بعد جزيمة الوضاح

ومنهم طيء . ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان فى الشمال الشرقى من المدينة ويخترقهما وادى الدهناء ولهما ذكر كثير فى أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بنى نصر : قال شاعرهم عارق الطائى

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة ٭ إذا استحقبتها العيس تنضى من البعد

أيوعدنى والرمل بينى وبينه ؟ ٭ تامل رويدا ما أمامة من هند

ومن أجأ حولى رعان كأنها ٭ قبائل خيل من كميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهى فى آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت أخصب الأراضى العربية الشمال والغرب وبقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السياد على البلاد ومنهم الملوك والأقيال .

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه ـ معيشة العرب من بدو ومن حضر

حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فمهده مكة وماجاورها من أرض الحجاز وتهامة فإن عدنان ـ باجماع كلمة المؤرخين من العرب ـ ينتهى نسبه إلى إسمعيل بن إبراهيم الذى جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب اليه وإلى أبيه بناء البيت الحرام (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ولم تزل أبناء إسمعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده معدّ ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه أياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر فى الشرف والرفعة ، ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام

ومن ربيعة عبد القيس ابن أفصى ومنها بكر وتغلب ابناوائل . ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر ، وبطون الياس ابن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغنى بن أعصر

وافترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تيم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمة : وبطون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم ابناهصيص بن كعب

وعدى بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرّة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبدالدار ابن قصى وأسد بن عبد العزى بن قصى وعبد مناف بن قصى

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبدشمس ونوفل وعبدالمطلب وهاشم . وبيت هاشم هوالذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم ، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد على بن أبى طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا أنّ البلاد التى نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبدالقيس — من ربيعة وبطون من بكر بن وائل — إلى البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجىء الإسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوى من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجىء الإسلام هوذة بن على الحنفى الذى يقول فيه الأعشى

من ير هوذة يسجد غير متئب ... إذا تعمم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها ... صواغها لاترى عيبا ولاطبعا

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتتوج معدى قط وإنما كانت التيجان لليمن فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال إنما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسرى فى جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكراً وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادى القرى إلى خيبر إلى شرق المدينة إلى حدّ الجبلين ، إلى ماينتهى إلى الحرّة فتلك ديارهم لايخالطهم إلا بعض الأنصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن فى شرق مكة بنواحى أوطاس — وهى على الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران وبقى بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش إلا أنهم متفرقون لاتجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصى بن كلاب فجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة إلى مساكنهم - إلى حضروهم سكان المدن . وبدو : وهم الذين يقيمون فى البادية . إنما مساكنهم بيوتهم الشعرية لايصفو عيشهم إلافى ذلك الجو الفسيح - لايحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور : وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الأعراب ، وهو ماسنتبعه . ويغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو مايسمى بالعنجهية

أما الحضر : فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون أنها أقدم مدينة على وجه الأرض : وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك ، وفى شمال اليمن مكة : وهى تهامية والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر : وفى نجد حائل وفى العروض حجر - قصبة اليمامة - والقطيف بالبحرين وأهل المدن لايظعنون عن مقامهم لافى صيف ولافى شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء مايبغون وبيع ماتحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسرى والنعمان لطائم يرسلها إلى نواحى الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الأعراب كبير من كبار العرب تحمل البز والثياب وماتحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان إحداهما للشام فى زمن الصيف . والأخرى لليمن فى زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافىء تجارية كبيرة ولم يعرف للأمة العربية نقود كان بها التعامل ، وإنما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لها وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها حتى أنّ البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لانجده أكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفا بحرفة هي جلاء السيوف وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لأنّ القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه فى دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح من النعال وغيرها ، وكذلك حياكة الثوب ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل - وكانوا يرجعون فى صناعة البناء إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة فى زمن قريش وبناء الخورنق فى زمن النعمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

﴿ أحوال العرب ﴾

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التى تمثلها لنا أكبر تمثيل فى الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية ، ونعنى بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبنى عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعنى بالأدبية ما كان لهم من الأخلاق التى توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعنى بالسياسة ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعة لغيرهم ونعنى بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل فى أهله - ونريد بالأهل خصوص الزوج

يظلم العربى من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فإنا إذا كنا نستقى تلك المعاملات من شعرهم الذى هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى أكثر أوقاته إلا المرأة التى إن رقى فى نظرها فقد رضى الناس كلهم عنه ، وترى ذلك واضحاً جلياً فى أشعار حاتم الطائى شيخ الكرام وعنترة العبسى شيخ الشجعان ثم انظر إلى أى شجاع من العرب هل كان يفتخر إلا

محدثا امرأة من قومه بأنه المدافع عن الحريم الحامى للحقيقة ،

تراه إذا عـذلته على السرف وأشارت عليـــه بالقصد يجيبها بأرقّ ماتجيب به مخالف فى الرأى

ألم تعلمى ياعمـــرك الله أننى ۞ كريم على حين الكرام قليل ؟

أو لاترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التى بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم - لايذهبون إلى شىء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها ممـا تحب من النسيب يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة وتراهم حينما يخاطبونها وهى ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب فيقول أحدهم

يا ربة البيت قومى - غير صاغرة ۞ ضمى إليك رحال القوم والقربا

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بمـا كان لهـا فى النفس من سمو الدرجة وما أحلى احتراسه فى قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجه

سلى الطارق المعــتر ياأم مالك ۞ إذ ماأتانى بين قدرى ومجزرى

أيسفر وجهى وهو أول القرى ۞ وأبذل معروفى له دون منـكرى

فلا يناديها إلا بكنيتها وهذا من سمات التشريف فى عرفهم

وبالجمـلة فإن المتتبع لأشـعار العرب لايشتمّ منها رائحة الصـغار والإهانة للمرأة ويفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم إلى آبائهم وكانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمعت فإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت وإن وجهتها إرادة الانتقام إلى الشر أشعلت النار بين الأحياء

قال الحارث بن عوف المرى لخارجة بن سنان - فى إبان الحرب بين عبس وذبيان أترانى أخطب إلى أحد فيردنى قال نعم : أوس بن حارثة بن لام الطائى ، فقال الحارث لغلامه هيِّئ لى مركباً ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة ، حتى أتيا أوساً فوجداه فى داره فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن مجيئه ، فقال جئتك خاطباً فقال أوس : لست هناك فانصرف ولم يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضبا وكانت من عبس فقالت من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف قالت فمـا لك لم تستنزله قال إنه استحمق جاءنى خاطبا قالت أفتريد أن تزوج بناتك قال نعم قالت فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان

منك فالحقه وقل له إنك لقيتني مغضبا بأمر لم تقدم منى فيه قولا فلم يكن عندى من الجواب إلا ماسمعت فانصرف ولك عندى كل ما أحببت فإنه سيفعل ففعل ذلك أوس وورد حارثة فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعى لى فلانة لكبرى بناته فأتته فقال يابنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب وقد جاءنى طالبا خاطبا وقد أردت أن أزوجك منه فقالت لا تفعل لأنى امرأة فى وجهى ردة فى خلقى بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمى وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ولا آمن أن يرى منى مايكره فيطلقنى فيكون على فى ذلك مافيه، قال قومى بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل جوابها وقالت إنى خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى مايكره فيطلقنى فيكون على فى ذلك ماتعلم، ثم دعا الثالثة وهى بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت أنت وذاك فأخبرها بإباء أختيها فقالت لكنى والله الجميلة وجها الصناع يداً الرفيعة خلقا الحسيبة أبا فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت إليه فى بيت أبيها فلما خلا بها وأراد أن يمد يده إليها قالت مه أعند أبى وإخوتى . هذا والله مالا يكون فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت أكما يفعل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل مايعمل لمثلى فرحل حتى إذا وصل ديار قومه أعد لها مايعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة فى نظرهم ومشاركتها لهم فى جميع أمورهم وكيف كان الرجل لا يزوج بناته إلا بعد أن يستشيرها ويقف عند إرادتها ولا يمكننا أن ندعى أن هذا كان أمراً عاما عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب فى جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة لأن وجود أفراد هذه معاملتهم لا يحتمل أن يكون برهانا على أن هذا خلق عامتهم كيف ونحن فى بيئة لا نعدم فيها من يرفع زوجه إلى أعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم أن احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها ولكن الذى يمكننا أن نقوله هو أن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير أن يقابلوا بالنكير يدل على أنه لم يكن عندهم بدعا من العمل بل كان شيئا لا تنفر منه طباعهم يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراما جما ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة

يوما فيكتب فى إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتى فى زواج بنتى فكان منى ومنها كيت وكيت لو قال هذا القابلته النفوس بالاستنكار لأنه ليس من مألوف عادات القوم من ذلك يمكننا أن نقول إنّ علاقة الرجل العربى بأهله كانت على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا وكان لها من حرّية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيمرّ بكم كثير من آثارها الكبيرة فى الإسلام وهى مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأى إلا أنّ الرجل كان يعتبر ـ بلا نزاع ـ رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم بذلك وهذا الزواج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان ولم يكن ذلك أمراً مستحسنا عند جمهورهم إذ المعروف عن العربى من غيرته على أهله ومحافظته على شرفه ـ يبعد ذلك

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال إنّ الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج فى ضمن هذه الأنواع تلك المسافحات

وكانوا يعدّدون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حدّ معروف إليه ينتهى الأمر فى هذا التعدد فقد ورد فى الصحيح أنّ غيلان الثقفى أسلم وتحته عشرة نسوة

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهنّ فكنّ يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهنّ

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان إذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار فى مدّة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة وإن كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة فى نفى العار عنه كما قال عنترة :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا   شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون

لهم الشرف حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا فى أول ذلك أنهم تخيروا أمهاتهم وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون أنواعا من الاجتماعات : كزواج البنت والأخت والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بنى تميم أنه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الإباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه فى غزواته

أما معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربى الولد ليكون له درعا حصينة يتقى بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل ذلك وكان لهم من الحنو على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يئدون بناتهم «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ٭ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » ولم يكن هذا فى جميع العرب بل كان فى بعض بطون من تميم وأسد ولم يكن بالطبع إلا فى طبقة منحطة منهم لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر وإلى ذلك الإشارة فى قول الكتاب (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم)

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه وكان يشترى البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التى تعد على الأمة العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيه وبنى عمه دنيا فبينها هذه الجملة التى قالوها انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقى من غير التعديل الذى جاء به الاسلام لأن الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أمامهم فكانوا ينصرون إخوانهم وبنى عمهم نصراً حقيقياً على كل حال فى صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذى يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته

وينقصه من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جراء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم

لوكنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافات ووحدانا
لايسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا
لكن قومى ـ وإن كانوا ذوى عدد ـ ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

وإذا دخلت قبيلتان منهم فى حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل والأمر واحد فى الحالفين

بينما هذه حالهم فى بنى أبيهم دنيا وفى حلفائهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً فى الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة التى لا تطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبدشمس وهاشم وكما تراهم فى الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية فى حروبهم والسبب فى ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول ـ التنافس فى مادة الحياة بين بنى الأب الواحد فإنا نعلم أن حياة العرب كانت على مراعيهم التى يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التى منها يشربون وهى محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة فى الكلأ والماء وأكثر مايبتدئ ذلك النزاع بين رعاة الإبل القائمين بشأنها فإنهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولا أو فى نفس المراعى فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بدأ فينزح أحد الأخوين عن داره مرغما إلى مكان آخر هو وأولاده ومن

يلوذ به ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفى النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى : وهذا أمر نشاهده فى ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك فى عبادتهم، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الإمام الشافعى ، فاستغربت ذلك وسألت ذوى الأسنان منهم عن سببه فأخبرونى أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذى يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثانى - تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما الآخر فيورثهما ذلك تباغضاً تزيده الأيام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً فى نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفى هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة فى الأنساب ، المتقاربة فى الأمكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون إليه فى الحكم بين المتنافرين فى الرئاسة والشرف إنما كانوا فى بعض الأحيان يلجأون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأى ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه مايشرفه فى النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضراما

وإذا كان الحكم عارفا بدخائل العرب سوى بينهما فى الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابنى العم فإنه قال لهما أنتما كركبتى البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يجد له شاعراً يلهبه ويزيد

فى نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الأعشى فى هذه القضية فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً ويزعم أن الحكم قضى له ومما كان يزيد فى هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الأخرى وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لأن كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التى تعادى قبيلته المعترف لها بالتبريز فى السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحى الإنسان من إنشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة

ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لايحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية لايمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الأطفال وتأييم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها فى بعض الأحيان تافهة كما كان فى حروب الفجار وفى البعض الآخر تراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك هى النفور المتأصل فى القلوب لما ذكرناه

المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة — من هذه الجهة — قسمين القسم الأول منهم ملوك متوجون إلا أنهم يرجعون إلى سلطان أعظم منهم فهم فى الحقيقة غير مستقلين والقسم الثانى : رؤساء عشائرلهم ماللملوك من الحكم والامتياز إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج

القسم الأول

الملوك المتوّجون

ملك اليمن

إذا نظرنا إلى المولعين بإرجاع التاريخ إلى الأزمان المترامية إلى الوراء وتحديد مابيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتناقضون ولايشعرون فإنهم يبنون هذه التحديدات على مجرّد خيالات وظنون لاتغنى من الحق شيئا

يقولون إنّ قحطان بن عابر المعبر عنه فى التوراة بيقطان هو أول من سكن اليمن من بنى سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ويتبع هذا الكلام أنه كان ملكا متوجا لبس التاج سنة ٢٠٣٠ قم فتكون النتيجة أنه كان ملكا على نفسه أوعلى أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ولايدرون أنّ الذى يعطونه هذا اللقب لاتزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه

والمسعودى صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ يقول فيه إن أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهى بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلى اليمن وعاد فذهب إلى بلاد طيء ثم على الأنبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلى أذربيجان فغزا وغنم ..

ويروون عن ابنه ذى منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب إلى أقصاها وأن ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادى الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنما من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادى وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميرى وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك أحد . وإن تبعا دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد بها وخلف بالتبت اثنى عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الأخبار لا تقبل إلا إذا ضحى جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربى (المتوفى سنة ثمانمائة وثمانية) فى مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدإ والخبر ، وكذلك على بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٨

وقد بين محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم فى موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم إنما كان رئيسا على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فإن نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه - فإنما ذلك منه عن غير ملك له موطد ولا لآبائه ولا لأبنائه ولكن كالذى يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فإذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً إلى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدى له خرجا

وقال فى موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وإنما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الأول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الأول منهم والآخر ، إذ لم يكن من الأمر الدائم فإن دام شىء فإنما يدوم لمن دام له منهم لأنه عامل لغيره فى الموضع الذى هو به لا يملك بنفسه اه

فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا فى أنحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء فى بعض الأحيان من يوسع

سلطانه إلى مايجاوز مخلافه ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة المتغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابه

وكانت حمير وكهلان فى قحطان بمنزلة ربيعة ومضر فى عدنان شعبان يتنافسان فى الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ماوراء مخلافه بما يتاح له من القوة فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعا لايستحق هذا اللقب غيره ، حتى إذا ضعفت تلك القوة فى أيام هذا المتغلب أو فى أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوى السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقيال والواحد قيل

ومن هذا يظهر مابين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التى كانت بينه وبين الملك الذى يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودى

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها فى التوراة بلقب ملكة سبأ وفى القرآن بهذا اللقب أيضا

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك إسرائيل ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفى سياق الحكاية مايدل على أن ملك اليمن لم يكن بذلك الضخامة التى تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل إليها مهدداً (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الأصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع مابينهما من البعد الشاسع ؛ وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التى كان عليها ملوك اليمن إذ ذاك . وممن اشتهر من ملوكهم يوسف ذونواس وكان يهوديا

فرأى أن بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحى اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الرومانى منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذى نواس إلا أن مثل بهم حرقا بالنار سنة ٥٣٤ه ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشى صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذوى نواس فبعث إليه قائداً حبشيا اسمه أرياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذو نواس أغرق نفسه فى البحر خشية العار وظل أرياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الامراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام [1] فى سيرته بأنها الحصبة والجدرى: وروى أن هذا كان أول حصولها بمكة فعاد منهزما وتوفى بعد عودته وأشار القرآن إلى هذه الحادثة فى سورة الفيل.

وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثانى مسروق

كان فى ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلى نيل الملك ولا يقعده إلا العجز وهو سيف بن ذى يزن الحميرى فرأى من الضرورى أن يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو ملك الفرس؛ ولكنه أخفق فى استنجاده بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حينا من الزمن فمات سيف [2] فذهب ابنه معد يكرب إلى كسرى يستنجزه وعده فأشار على كسرى كبراء دولته أن يعين معديكرب لما كان لهم من الامل فى امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الأساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الأبلة وقطعوا خليج عمان حتى أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من إحدى فرضها وتوجهوا إلى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذ توج وهرز معد يكرب ملكا على اليمن وأبقى معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالأبناء وينسب إليهم فيقال ابناوى

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميرى المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد بن إسحق رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعد فى السير (٢) بعض المؤرخين يروى أن سيفا هو الذى ملك اليمن لا ابنه.

وقدوفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنئونه بعودة الملك ، وممن وفد عليه عبدالمطلب ابن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان معد يكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعا يخدمونه ويمشون فى ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذى يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله ومازالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى كان على عهد الفتح الإسلامى لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب إلى الإسلام لجاء الإسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدى له الخراج ولم يكن ملكه عاما بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون فى مخاليفهم وكتب إليهم النبى صلى الله عليه وسلم كتبا مستقلة بصفتهم أقيالا كما كتب إلى النعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان وكما كتب إلى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد أن انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدونى فى سنة ٣٣٢ ق . م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون فى تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض فى هذه التجزئة وهى أن يسجل على بلاد الفرس ضعفا أبديا لايتمكنون معه إعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح فى هذه الفكرة فإن ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التى كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذى نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية أودولة الأكاسرة

وفى عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءاً مهما من ريف العراق كان قبل ملكا للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم فى تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التى كانت لهم من قبل رجع إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سببا فى رحيل جمع من قضاعة إلى الشام . ودان له

أهل الحيرة والأنبار . وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس)

ولجذيمة هذا خبر ظريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فإنه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدى فأراد أن يأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة إلى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته فى قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجىء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال فى الغرائر على الإبل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذى أعدته لهربها فأدركها عمرو فمصت سما وقالت بيدى لا بيد عمرو ؛ ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الإفرنج ؛ ويقولون إن الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بين السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبرارى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان فى عهد القيصر أووليانس وقهروها وأخذوها أسيرة إلى رومية حيث قضت هناك نحبها وذلك فى المدة بين سنتى ٢٧٠ ، ٢٧٣ م وموت جزيمة كان حوالى سنة ٢٦٨ م

وبعد موت جذيمة ولى أمر العرب عمرو بن عدى بن نصر اللخمى وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م إلى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم سنة ٣٦٤ إلا أن الملك قد انقطع

فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو فى عهد سابور بن أدشير ولم تزل الملوك من بنى نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر فى زمنه مذهب الإباحية فى بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجا وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فأرسل إلى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه إلى أن يكون على ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى الذى كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى

ولم يزل ملكا حتى مات قباذ وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالأنبار وبها منزله فهرب بأولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بنى حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم فى ديار بنى مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ☆ وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث فى دار كلب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه حجرا على بنى أسد بن خزيمة وغطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معديكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبنى سعد من تميم . ولم يكن هذا الملك بالشىء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لأخذ الثأر ممن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه فى ذهابه إلى ملك الروم واستنجاده به على قتلة أبيه

ولما عاد الملك إلى المنذر بن ماء السماء استمر فى عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر

المكنى بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى انتقاما منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل اليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن أنه هالك إن توجه إلى المدائن فذهب يتنقل فى أحياء العرب يريد منهم أن يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلا حتى ورد ذاقار ونزل على بنى شيبان سرا فلقى هانئ بن مسعود الشيبانى وكان سيدا منيعا والبيت من ربيعة فى آل ذى الجدين لقيس بن مسعود أخى هانئ وكان كسرى أطعمه الأبلة فكره النعمان أن يرفع اليه أهله لذلك وعلم أن هانئا يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه إلى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائى وهو من أشراف طيئ وأمره أن يرسل إلى هانىء بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هانئ حمية وآذنوا الملك بالحرب فأمر إياسا أن يسير اليهم بالجنود ومعه مرذابة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بنى شيبان قال لهم هانئ يامعشر بكر لاطاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا إلى الفلاة فأسرع الناس إلى ذلك فقام حنظلة ابن ثعلبة العجلى وقال ياهانئ أردت نجاءنا فألقيتنا فى التهلكة ورد الناس وقطع وضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لايفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجىء الفرس حتى جاءتهم . وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنوشيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكما فارسيا كما فعل فى بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفى سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقى من بنى نصر بالعراق

جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جدا كما كان فى اليمن لأن الملك كان عاملا للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدى لهم الخراج وإذا شاء ملوك الفرس أبقوه وإن شاءوا عزلوه . ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطانا تاما وإنما كان اسميا

لأنّ العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون فى وجهه محاربين وكان أحيانا ينتصر عليهم إذا قاموا فى أماكنهم وأحيانا يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويجتمعون ببواديهم فلا يمكنه أن يتبعهم

وما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أنّ عمرو بن المنذر بن ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندى قال يوما لجلسائه هل تعلمون أحدا من العرب يأنف أن تخدمه أمى قالوا مانعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبى فإنّ أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على مافى نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمّه هنداً بنت الحارث أمّ الملك فقدم ابن كلثوم فى فرسان من قومه تغلب ومعه أمّه ليلى فنزل على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته طعاما وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند فى القبة وقد قال ابن هند لأمّه إذا فرغ الناس من الطعام فنحى خدمك عنك فإذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومريها أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ماأمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناولينى ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى : واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق فى السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال فى ذلك شاعر التغلبيين :

لعمرك ماعمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا ... وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم فى معلقته :

بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويدا ... متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا ياعمرو أعيت ... على الأعداء - قبلك - أن تلينا

المحاضرة الرابعة

الملك بالشام — الإمارة بالحجاز — الحكم عند العرب

الملك بالشام

فى العهد الذى سار فيه عرب اليمن إلى ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت إلى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد بن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة إلى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدونى وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكا ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهدا طويلا يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكا على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحى الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب فى المملكة الرومانية ويسمى فى تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالا لملوك الروم حتى جاء الإسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان لبنى جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيرا من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحى

وكان حسان بن ثابت كثيرا ما يمدحهم لأنه ينتمى إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ماتهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهى واد وراء الأنبار على طريق الفرات - إلى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الأعرج بن أبى شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة فى هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذى بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفى هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولى بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشا تحت قيادته وسار إلى أن أتى مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضا

الإمارة بالحجاز

كان يلى أمر مكة ولاة من جرهم قحطان - وهى جرهم الثانية - ولما جاء اسماعيل مكة مع أبيه إبراهيم صاهرهم : وكان لأولاد إسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شىء . ولما ارتحل الأزد من مأرب بعد السد ، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ٭ أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا ٭ صروف الليالى والجدود العواثر

ووليت خزاعة أمر مكة حينا من الزمن وفى وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا فى نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقى بمكة أولاد فهر بن مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شىء حتى جاء قصى بن كلاب وهو الأب الخامس لمحمد بن عبدالله ﷺ فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ، وما لم يبق إلا أمر ولاية البيت أخذه قصى من سادنه المكنى بأبى غبشان وهو صهر قصى ، ويقال إنه اشتراه منه بزق خمر ، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التى كونها من عصبية فهر

ابن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والأمر النافذ فى مكة ، وصار الرئيس الدينى لذلك البيت الذى كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، ومن مآثر قصى تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصى من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة لايفتح بابها إلا هو وهو الذى يلى أمرخدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشىء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة : والرفادة طعام كان يصنع للحاج - على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصيا على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذى تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصى بن كلاب وكان ابنه عبدمناف قد ساد فى حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبدالدار الذى كان أسن من عبدمناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبدشمس والمطلب ونوفل فنافسوا بنى عمهم عبد الدار فى هذه المصالح التى رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بنى العم ، وسببه المنافسة فى الشرف وافترقت قريش فرقتين : فرقة تساعد بنى عبدمناف وفرقة تساعد بنى عبدالدار ؛ وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لايغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبنى عبدالدار الحجابة واللواء والندوة ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبدمناف فكان هو الذى يليهما ومن بعده بنوه حتى جاء الإسلام والأمر على ذلك

وكانت لقريش مصالح أخرى لاتساوى هذه فى العظم — وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش

حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشا مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال إلا أنهم وإن لم يصابوا بعصبية الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتما بين كبراء البيت الواحد إذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه وكان أمية مثريا من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الإسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يوما إلى حد شبوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه لأن ذلك لو وقع لانحط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فإن مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ إليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرما يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فإذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترئ عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم ؛ فمن هنا كان التحكيم في الأمور العظيمة من مألوف عادتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده

ومما امتازت به قريش حلف الفضول وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب في بواديهم

كانت القبائل في نجد. ما كان بالقرب من الحيرة تبعا لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعا لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون أن يحكموا حكما ملوكيا يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال

وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فمتى وجدت هذه الصفات فى رجل ساد العشيرة كلها ، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء ! تقيم بإقامته وتظعن بظعنه ، وإذا دعا الحرب لاتتأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفى والنشيطة والفضول : فالمرباع ربع الغنيمة والصفى ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيطة ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم ، والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيبان

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد ، وكان بيت قيس فى الجاهلية فى بنى فزارة ومركزه حذيفة بن بدر ، وبيت تميم فى بنى دارم ومركزه حاجب بن زرارة ، وبيت ربيعة فى آل ذى الجدين ، ومركزه قيس بن مسعود الشيبانى : وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك فى رعاياهم إلا أنهم كانوا لا يتتوجون حتى كان بعضهم إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لا تسأله فيم غضب ! وكان فى بعض الأحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدى له خراجاً كل سنة ، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس — من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فإنهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بعكاظ وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

وممن ساد من العرب هوذة بن على الحنفى سيد بنى حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التيمى — سيد عبد القيس : وتميم بالبحرين

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة فى السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً ، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم إلى بذل الندى وإكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين : والشعر كان له أعظم التأثير فى قلب العربى يحركه كما يحرك الهواء ريشة فى الجو ! !

المحاضرة الخامسة

الحال الأدبية

الأخـــلاق ـــ اللغة

الأخلاق

الخلق هو الملكة التى بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشى واللعب النظامى

عموم الأخلاق

لايحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفا عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عدّ من مذام الأمم - التى بها تستحق السقوط والخذلان - أنهم لايتناهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى فى الكتاب (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لأن الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه فى الجريمة . فإن كان الشر معروفا عن فرد أو جماعة يستترون به أو يعانونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لاتعدوهم إلى الأمة بأسرها ، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الأمة : كذلك لايحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفا عند جميعهم لايخالفه أحد منهم إلا مستتراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور ، وعلى هذه القاعدة نسير فى بيان الأخلاق عند العرب

من الأخلاق التى كانت للعربى سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج فى هيجه إلا إلى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مس شرفه فتجده زأر كالأسد خرج من مكمنه لايتريث حتى يستطلع جلية الأمر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً وهذا الخلق أكثر ماتراه فى قبائل البادية الذين كانوا لايخشون سجناً ولا أحكاما قاسية من جراء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون

النصر المؤزر من أقواههم وحافاتهم ، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فإذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلى السير فى طريق الحروب بقليل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربى كما فى كل أمة وأرقاها درجة فى التأثير . يالفلان . واذلاه ، وانصيراه ، شرف الآباء ، وما شاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شىء من بلادة الطبع التى تجعل صاحبها يألف سماع مايهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ، لأن النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا فى سادتهم وذوى الأسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلون

ومن أخلاقهم التعصب ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة فى حال العرب الاجتماعية ، وقد سمى القرآن هذا الخلق وماقبله حمية الجاهلية لأن فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به ومثن على غيره * كان الواحد منهم يأتيه الضيف ـ فى شدة البرد والجوع ـ وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها ويذبحها لضيفه يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم فى الكرم أن سالم بن قحفان من بنى العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيرا ثم طلب من امرأته حبلا يقرن به بعيره إلى من أعطاه إياه . ثم ثانيا وثالثا حتى لم تجد حبلا ! فقال لها علىّ الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فقال :

لا تعذلينى فى العطاء ويسرى لكل بعير ـ جاء طالبه ـ حبلا
فإنى لا تبكى علىّ افالها إذا شبعت من روض أوطانها بقلا
فلم أر مثل الإبل مالا لمقتن ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

فأجابته امرأته :

حلفت يمينا يا ابن قحفان بالذى تكفل بالأرزاق فى السهل والجبل

تزال حبال محصدات أعدها ... لها مامشى منها على خفه جمل
فأعط - ولا تبخل - لمن جاء طالبا ... فعندى لها خطم وقد زاحت العلل

ويرى المطلع على أبواب الحماسة والرثاء والآدب والأضياف - من ديوان الحماسة الذى جمعه حبيب أوس الشهير بأبى تمام - مايثلج الصدر

ومن أخلاقهم التى كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم دينا يتمسكون به ويستهينون فى سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم. انظروا إلى مافعله هانىء بن مسعود الشيبانى بسبب أدرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهى الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك، ثم انظروا إلى ما فعله السموءل بن عادياء وهو عربى المقام والمولد حينما خيره الحارث الغسانى بين قتل ولده وتسليم أدرع امرىء القيس بن حجر الكندى التى كان أودعها عنده ففضل قتل ولده، وفى ذلك يقول الأعشى مخاطبا شريح بن عمرو الكلبى :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... فى جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطتى خسف فقال له ... اعرضهما هكذا اسمعهما حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر. وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل، ثم قال له ... اقتل أسيرك إنى مانع جارى
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ... - رب كريم وبيض ذات أطهار
فاختار أدراعه أن لايسب بها ... ولم يكن عهده فيها بختار

ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زرارة التميمى سيد بنى تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب، والقوس فى الحقيقة لا يمنعه رهنها من فعل مايشاء إن كان من شيمته الغدر، وإنما خاف السبة على بنيه من بعده - إذا هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق فى الأمة العربية أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأسا بين العرب

وخلق الوفاء فى الحقيقة أعظم ممثل للأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقى فإن

خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لامحيص عنهما

ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغلون فى الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدما على الأبناء والإخوان . ومن ذلك أن رجلا من السواقط من بنى أبى بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سلمى إنه له جار فحدث أن كان بين قرين بن سلمى وبين أخى الجار أسباب أدت إلى أن قتله قرين ، وكان عمير غائبا فأتى الكلابى قبر سلمى أبى عمير وقرين فاستجار به ، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابى أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل ، فلما قدم عمير قالت له أمه لاتقتل أخاك وسق إلى الكلابى جميع ماله ، فأبى الكلابى أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع الوادى فربطه إلى نخلة وقال للكلابى : أما إذ أبيت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادى وارتحل عن جوارى فلاخير لك فيه فقتله الكلابى . وفى ذلك يقول عمير

قتلنا أخانا للـــوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير

تعد معاذراً لاعـــذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فإنهم كانوا يخلطون حلفاءهم بأنفسهم ويوفرن لهم بأيمانهم التى عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة التى دخل فى حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قريش فى الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشاً كانوا يضنون ببناتهم عن أى قبيلة أخرى لايرون أحداً من العرب لهن كفءاً إلا من دخل فى حلفهم ومن أخلاقهم التى كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهى قوة فى النفس تحمل صاحبها على الإقدام على المكروه ، وباب الحماسة فى أشعارهم أكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر فى جميع الأفراد أما الكرم فإنه لايظهر أثره بجلاء إلا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم فى شدة اليأس وقوة القلب : وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها فى أشعارهم ولكننا لايمكننا أن نقول إنها كانت أخلاقا عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم فى أبواب الأدب يجد

من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم أنّ هذه الأمة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش — لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم : ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التى كان العرب يتمدّحون بها الميسر ! ؛ وكانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم لأنهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه وكانت طريقتهم فى لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار إلى عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقداح وهى عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول وهى عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوعد ، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لانصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الأول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهى إلى السبعة للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح إلى رجل أمين يقال له أمير المقامرين فتدفن فى الرمل أو توضع فى خريطة ويلف على كف الأمين قطعة من جلد لئلا يحابى أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الأمين يده فيخرج قدحا : ولنفرض أنّ الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القداح فإن خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وإن خرج فى أوّل الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقى واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لأنّ مايستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقى ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فإن خرج المعلى أخذ سبعة وبقى أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لأنّ منها النافس ، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقى ١٤ جزءاً فإذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان : ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءاً ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل

من ربح فى جزور ليس عليه من ثمنها شىء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الأولى يقسم على ١٨ جزءاً ، وهى لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى . وكذلك ثمن الثالثة

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التى أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الإسلامى وهذه المفسدة هى أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شىء

ومن عاداتهم التى يتمدحون بها — شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها فى الشعر العربى بابا من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ماقيل فى شربها من جهة الأسلوب اللغوى قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مفدم

فإذا سكرت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

والشرب — فى وقت عنترة هذا — كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحا ويسمى الصبوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر فى التحريم ، لأن المنفعة فى كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها فى مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب فى جزيرتهم مذ حلها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمعون فى التاريخ بالعرب العاربة لإصالتهم فى العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التى سارت إلى مكة واحتلتها قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان إسماعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهى الثانية من اللغات السامية وأمه

هاجر امرأة مصرية . أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل فى اللغة العربية بعض مايحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ماتحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب مايسهل على اللسان العربى وهذا أمر يسهل القول به لأن إسماعيل وأمه لايمكنهما أن ينسيا بالمرة مافى أنفسهما من الكلمات المحفوظة وإذا احتاجا إلى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة فى لسان جرهم يفزعان إلى مامعهما وهذا مشاهد فى تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون إسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم فى العربية ليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربى الحميرى وهو لغة العرب الأصلية والفرع العدنانى أو الحجازى وهو لغة بنى إسماعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان وإنما الخلاف فى ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب إليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الألف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلابة لايجدها فيما يرادفها من الألفاظ الحجازية

معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون فى بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب مايعن لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على مايقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعانى المعقولة استدل عليها بكلمات تنبئ عنها . لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية فى حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب فى توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الأول ـ تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ إليه أحيانا وربما اختلفت مواضعتهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الأسماء مشتقاً من صفة فى المسمى وبهذا يجيء مايسمونه بالترادف وأكثر ما نجده فى أسماء الأشياء التى هى عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وماشاكل ذلك

الثانى ـ التجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطا أو تشابها فيطلقون لفظ الأول على الثانى ومع تطاول الزمن ينسى وَل الشيئين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت فى أصل اللغة وضعا

ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ماتخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع. وللعرب فى هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عنى بلغتهم، وكانوا دائما يكنون عن المعانى التى لايرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة فى المعنى الخسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتا ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعانى بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة.

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وإرادة مايلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهى المسماة فى اصطلاح البيانيين بالكنايات

الطريق الثالث — طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم فى التعريب الشأو الواسع، لأن العرب اشتغلوا بالتجارات والأسفار وساكنوا الفرس والروم والحبش. وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الأمم اسمها بعد أن يتلاعبوا به قليلا حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت فى اللغة قبل الإسلام بزمن ليس بكثير.

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربى فإن هذا الشركان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التى إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهى عكاظ ومجنة وذو مجاز

فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى عشرين منه ومجنة بمر الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذى القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيا من ذى الحجة ثم يعرفون فى التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية. وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ماجادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر مايستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا فى المعلقات السبع ومايقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب وأكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرئ القيس الذى كان أبوه ملكا فى نجد على بنى أسد وشعراء الأوس والخزرج الذى كانوا بالمدينة

وطيء وكلب المقيمين في شمالى الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريباً لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم للأمم الأخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عدى بن زيد العبادى الحيرى وأمية بن أبى الصلت الثقفى لأنه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات فى اللغة لم يسبق إلى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهى سعتها وقدرتها على التعبير عما يكنه الصدر من المعانى فكانت وافية بحاجتهم على قدر مااتصلت به معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها مايرى المتكلمون بها أنفسهم فى حاجة اليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولاتحتاج اللغة إلى أكثر من هذا فى استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسنة والأسماع وهذا مانحس به فى هذه اللغة الجميلة

جاء الإسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها فى عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون فى مواقفهم المعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن ، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هى رزقت شاعراً ينافح عنها فى المجامع وربما أولمت الولائم فرحا بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد أن يرى مثالا واضحا من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب فى جميل المعانى فليطالع على مااختاره أبو تمام الطائى من شعر العرب وعلى ما جمعه أبو على القالى فى أماليه ، وماجمعه أبو العباس المبرد فى كامله ، وماجمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فإن مافى هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً فى جانب الذهب الوفير

المحاضرة السادسة

الكتابة ـ العلوم ـ الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الأفراد وإنما كان فى الخاصة منهم كما كان الشأن فى الكتابة المصرية ، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية إلى مكة وكان رجلا سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة فى هذه الجهات الثلاثة ليست بالشيء المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى أنها كانت لترى فى ذلك سمة عيب كما هو شأنها فى بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها فى أفراد قليلين يسهل أن نعبر عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أى لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الإسلام فقال (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير فى اعتماد الإنسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت نمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد فى المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلا أو بعضاً وربما فاتهم الشيء منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا وهذا سبب لما نراه فى بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات ولكن الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقى لنا منه أكثر مما بقى من نثرهم وخطبهم فى المحافل والمجامع

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ بيدهم إلى طريق ترقيتها كما يأتى بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنبا لجنب لأن الإنسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ما كان منها مختصا بما هم فى حاجة إليه وكانت الحاجة فى حواضر العرب أكثر منها فى باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة أكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربى فى باديته تنحصر فى الماء الذى يحتاج إليه ويعمله من السماء ثم فى جمله الذى هو عدته ثم فى ملبوسه البسيط الذى يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم فى بيته الشعرى ، ثم أداة حربه وقلما يحتاج إلى أكثر من ذلك

فأما حاجته إلى المطر فقد أكسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبىء عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإنذار بالجدب وقد كانت لهم فى ذلك قواعد تجريبية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالأنواء [1]

---

(١) قسم العرب المنطقة التى تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثنى عشر قسما وسموا كل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة فى جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها فى الشمال وسموا كل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى فى الشمال هى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة التى فى الجنوب هى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالا أخرى وهى التى يتقلب فيها القمر فى مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هى المنازل ـ السرطان والبطين ـ النجم وهو الثريا ـ الدبران ـ الهقعة ـ الهنعة ـ الذراع ـ النثرة ـ الطرف ـ الجبهة ـ الخراتان ـ الصرفة ـ العواء ـ السماء ـ الغفر ـ الزبانى ـ الاكليل ـ القلب ـ الشولة ـ النعائم البلدة ـ سعد الذابح سعد بلع ـ سعد السعود ـ سعد الاخبية ـ فرع الدلو المقدم ـ فرع الدلو المؤخر ـ الحوت

وبعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبتدئ القمر فيعيد التقلب فى هذه المنازل كالمرة

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال السحب ما رواه صاحب الأغانى قال خرج إعرابى مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعى غنم لهما فقال الشيخ إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى . فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلى ثم قال لها بعد ساعة إنى أجد ريح النسيم تددنا فارفعى رأسك فانظرى قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعى واحذرى ثم قال لها بعد ساعة إنى لأجد ريح النسيم قد دنا فانظرى فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال ارعى واحذرى ثم مكث ساعة وقال إنى لأجد ريح النسيم فانظرى ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فويق الأرض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح

كأنما بين أعلاه وأسفله * ريط منشرة أو ضوء مصباح

فمن بمحفله كمن بنجوته * والمستكن كمن يمشى بقرواح

قال انجى لاأبالك : فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما

وحاجتهم إلى إبلهم أكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل ومداواتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم فى معرفة ذلك حظ وافر كما إنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الإنسانى ومعرفة أمراض الإنسان التى تنتابه فى الصحراء من أنواع الحمى التى لابد منها لمن يتيم حول منافع الماء متعرضاً لبرد الليل وحرارة القيظ وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها

وكان للكى بالنار فى أدويتهم قصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد

الأولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً وفى كل ثلاثة عشر يوما نوء جديد . وقال بعض علمائهم إنه لايسمى نوءاً إلا إذا كان معه مطرفان لم يكن مطر فلانوء وإذا نسبوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه إلى الساقط وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوء من الحوادث الجوية مثلا قولهم الصرفة باب الدهر لأنها تفتر عن البرد أو عن الحر فى الحالين . وإذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء وما ماثل ذلك مما لاحاجة بنا إلى الإفاضة فيه

لأمراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الأطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئا من الطب من حواضر البلاد الأخر

وحاجتهم إلى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بذلك الصناعة نساؤهم فالمرأة إن قالت إنى صناع اليد فإنما تعنى بذلك أنها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسج فى حواضرهم وأكثر مايكون فى بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم إلى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وأفادتهم التجارب معرفة الأشجار اللائق أن تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط فى البحرين ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية أما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحى العراق والأبلة وكانوا يسمون ناحية الأبلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلى حساب إبلهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن فى البادية حساباً منتظماً بأرقام وقواعد تعلم وإنما كان حساباً أرقامه الأيدى ولهم طرق معروفة فى بيان كل عدد

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهى نوعان الاستدلال بأثر الماشى عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها — كما فى الآثار والإنسان كبنى مدلج . وللعرب فى معرفة الأثر أعاجيب لايكاد الإنسان يعيرها تصديقاً ولكن الذى يرى مابقى منها بين أعراب السودان لايقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك فى إظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون . قال جكسون باشا مدير دنقلا فى تقريره لسنة ١٩٠٥ :

« وللمهارة القائفين فائدة كبرى فى اكتشاف الجناة والعثور عليهم وإليك مثالا من ذلك — فى إحدى الليالى سرق صندوق سكر من حانوت فى مروى ، وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان فى صبيحة اليوم التالى وعثروا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه إلى أن وصلوا إلى اصطبلات الحكومة

وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين أنّ الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير أيضا واتضح أنّ حمار المفتش هو الذى ظهر أثر قدمه فى السوق ، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح أنّ باقى السكر دفن فى مكان قريب من الاصطبل ، ولما جىء بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا أنه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش »

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا مانسمعه من أعاجيبهم

وكان لهم فى النوع الثانى مالا يقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكما فصلا قائلا هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً وينفى هذا النسب إن لم يجد تشابهاً ولا يهمه إن كانا قد اتفقا فى اللون أو اختلفا فيه

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبى صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم فى الأنساب إذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ مايرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها فى حياتها ونباهة الأمة أس من آساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين : أما الأول فهو شعور الإنسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ماألم به من الكروب

الثانى شعوره بأن المعبود ذونفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التى بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر على كل شىء لأنه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة فى عبادته يرجو بها رضاء من خالق العالم الأكبر فإن كان حياً فهو الوسيلة وإن كان ميتاً قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صنم

أو ماشاكل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها فى حياته

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجماد نافع أو ضار لأن القوة التى أعطيها وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذى على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا : الشعور بقوة تتصرف فى العالم شىء يكاد يكون طبيعيا فى الإنسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان وتمثيل القوى المدبرة والأشخاص التى يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الإنسان متدين بالطبع حتى أنك لتراه إذا ألحد فى دينه وازدراه ينتقل منه حالا إلى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلى أفضل الطرق الموصلة إلى إرضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان ـ هو إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس ويدعى إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده

وكانت النبوة فى فرعين من ولده : الأول إسحق ومنه كان جميع أنبياء بنى إسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمى باليهودية نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذى منه كان جلة الملوك من إسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة إلى الناصرة وهى أول قرية دلم بها المسيح فقال العرب ناصرى ونصرانى وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصرى والفرع الثانى كان منه إسماعيل أخو إسحق وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضا مجدداً لشريعة إبراهيم كان الدينان المنسوبان إلى الأنبياء منتشرين فى الجزيرة العربية قبل الإسلام فكانت اليهودية فى بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذونواس اتباعا لدعوة حبرين يقال أنهما أتيا من تبع الحميرى من يثرب وكانت أيضاً بيثرب وماجاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التى كانت تتوالى على اليهود فى شمال صنعاء وفى جهات من البحرين وفى الحيرة لما تنصر النعمان ، وفى قبائل من طىء وفى عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين

بهذا الدين إلا أنّ المتدينين من العرب بالدين المسيحى لم يكن لهذا الدين تأثير حقيق فى نفوسهم لأنّ روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هى السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدى ابن حاتم الطائى وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إنى على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شيء من الدين المسيحى بل ولا اليهودى لأنّ اليهودى يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحى يبتعد عن الحرب

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين إبراهيم تعبد الله وتوحده إلا أنّ إسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافا يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئا من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرّب بها إلى المعبود الأعظم ، ولما سار عمرو بن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ورأى مايفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التى كان سادنها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوى الأثر الصالح فيهم ؛ أو تمثيل القوى التى يألفونها وهى سبب عظيم فى نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها ومما يؤكد ذلك ماقاله محمد بن هشام بن السائب الكلبى فى وصف ود وهو صنم عذرة نقلا عمن شاهده من رجال عذرة ؛ قال كان تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال قد زبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف بيد تقلده وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل — فهذا يشبه أن يكون تمثال قوة الحرب التى يعظمها العرب — وكان لهذيل صنم اسمه سواع فى رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليه من مضر وله سدنة من بنى لحيان — وكان لمزحج وأهل جرش يغوث . واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن — واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هوّدهم ذو نواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً

ويظهر أن هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة فى العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لأن نوحا كان ينهى قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد فى الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودآ ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسراً)

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر إنها لم تكن تمثالا وإنما كانت أثراً من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى ، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بنى سليم

ومنها ذوالخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خثعم ودوس وبجيلة

وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وإنما لتقربهم إلى الله سبحانه كما قال فى الكتاب (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وكانوا إذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقه يقولون إنه الله وكانوا يقدمون القرابين وهى الذبائح إلى هذه الأوثان والأصنام التى يدعونها النصب والأنصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النصب مفردا فقال فى كلمته التى يمدح بها رسول الله ﷺ

وذا النصب المنصوب لاتنسكنه لعافية والله ربك فاعبد

ولهم طرق فى توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبنى إسرائيل مايشبه هذه الطرق وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزوبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم والسائبة التى ينذر الرجل أن يسيبها إذا برئ من مرضه أو إن إصاب أمرا يطلبه فإذا كان ذلك أساب جملا من إبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لاينتفع بها

والوصيلة التى تلد أمها اثنين فى بطن فيجعل صاحبها لآلهته الأناث منها ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعهاذ كر فى بطن فيقولون قد أوصلت أخاهافيسيب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامى الفحل إذا نتج له عشرأناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلم يركب ظهره ، ولم يجز وبره وخلى فى إبله بضرب فيها لاينتفع منه بغير ذلك ـ هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة فى تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب متفقةفى عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التى نقل عنها الآخر

وقد ورد ذكر هذه القرابين الأربعة فى القرآن فقال فى سورة المائدة (ماجعل الله من بحيرة ولاسائبة ولاوصيلة ولاحام)

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالازلام : والزلم القدح الذى لاريش عليه ، والإزلام كانت لقريش فى الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولاتفعل ، وقد زلمت وسويت ووضعت فى الكعبة يقوم بها سدنة البيت فإذا أراد رجل سفراً أونكاحا أتى السادن فقال أخرج لى زلما فيخرجه وينظراليه فإذا خرج قدح الأمر مضى على ماعزم عليه ، وان خرج قدح النهى قعدعما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهمافى قرابة فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها أن يطالب الإنسان ماقسم له من جهتها وكان فى الكعبة صنم يمثل إبراهيم وإسمعيل وبأيديهما الإزلام يستقسمان بها

ومع ما كان للعرب من الأصنام والأوثان فإنهم كانوايعظمون الكعبة ويجلونها فوق اجلالهم لأى معبود آخرلهم يرون انها أثرأبيهم إسماعيل وكانوايحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكان الكعبة هى بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمره هم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلى أمراً من الأمور الدينية بمكة

وقد كانت قريش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لأحد العرب مثل حقنا ولامثل منزلتنا ولاتعرف العرب مثل ماتعرف لنا فلاتعظموا شيئا من الحل كماتعظمون الحرم فانكم ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالو

قدعظموا من الحل مثل ماعظموا من الحرم ، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون لسائر العرب ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لاينبغى للحمس يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولايدخلوا بيتا من شعر ولايستظلوا ـ ان استظلوا ـ إلا فى بيوت من الأدم ما كانوا حرما ثم قالوا لاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حجاجا ؛ أوعماراً ولايطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلافى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولاأحد غيره أبداً : وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى فحملوا على ذلك العرب فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك ـ بطريق الإشارة ـ فقال عن الأول (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) وقال عن الثانى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

المحاضرة السابعة

النسىء ـ الموحدون من العرب ـ المولد النبوى ـ الحال قبل النبوّة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن فى مكة كما كان يعلن فيها النسىء :

والنسىء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أى أخرت وأجلت ورجل ناسىء من قوم نسأة قال فى لسان العرب : وذلك أنّ العرب كانوا إذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول أنا الذى لا أعاب ولا أخاب ولا يرد لى قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً . أى أخر عنا حرمة المحرّم واجعلها فى صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأنّ معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم ، فذلك الإنساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

ألسنا الناسئين على معد ؟ شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه أبو على القالى فى أماليه فسمى الناسىء نعيم بن ثعلبة وقال فى آخر عبارة فإذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً ـ وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معـــد شهورهم الحرام إلى الحليل

وقال ابن هشام فى سيرته : والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل الله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدّة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله) ومعنى ليواطئوا ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهور على العرب ـ فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ماحرم ـ القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر الحرم الاربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئا أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدّة الاربعة الأشهر الحرم فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهم إنى قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الاول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال فى ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن

كنانة يفخر بالنساة على العرب

لقد علمت معد أنّ قومى كرام الناس أنّ لهم كراما فأى الناس فاتونا بوتر
وأى الناس لم نعلك لجاما ! ألسنا الناسئين على معد ! شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجرى من النسىء قبل الإسلام إلا أنّ بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكى المتوفى سنة ٢٧٢ فسروا النسىء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذى استعمله العبرانيون فى سنتهم القمرية فإنهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية إنها بالكبس أو هذا النسىء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لايكون الشهر العربى إلا فى فصل معين لاينتقل عنه ولايتغير كما هو الحال فى الشهور الرومية والقبطية التى لاارتباط لها بدورات القمر . وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفى صدرهم محمد بن أحمد البيروتى المتوفى سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودى الذى قال فى مروج الذهب : وقد كانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسىء وقد ذمّ الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخى العرب اختلاف بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسىء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ، ومنهم من اختار التفسير الثانى : وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة فى ذلك العالم الفلكى محمود باشا الشهير بفلكى فى رسالة له سماها نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام أبان فيها إنّ العرب قبل الإسلام لم تكن تستعمل تقويمها إلا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسىء عندهم إلا بالتفسير الأوّل وأظهر إنّ الخطأ فى ذلك واقع فيه لأوّل مرة أبو معشر [1] وتبعه البيروتى [2] ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لاتبقى مجالا للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسىء فى كتابى نور اليقين بما فسره به

---

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبى معشر البلخى توفى سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروتى الخوارزمى المتوفى سنة ٣٣٠

ولما تبين لى وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسىء بأنه زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله — والنسىء بالتفسير الأول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما كانوا يسمونه دينا وشريعة فقد كانت أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التى هى غارات وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالأشهر المعينة فهم يحلون أحد الأشهر عاما ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسىء بالتفسير الآخر فلا يعدو أن يكون نظاما ثابتاً انتهجوه فى تقويمهم لبقاء الأشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاما والتحريم عاما لمواطأة عدة ما حرم الله وإنما هو نظام ثابت لايكون مجالا لتلاعب النسأة بدينهم

ومن الغريب أن المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت تكبس قال فى تفسير الربيعين : إنما سمى بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فإن قيل قد توجد الدواب ترتبع فى غير هذا الوقت قيل قد يمكن أن يكون هذا الإسم لزمها فى ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون — كما قال — لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق أن النسىء عند العرب كان عملا يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للأهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم إلا أنه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طرقهم التى هم عليها لا توصلهم إلى الله ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوصل إلى الله بحجارة لا ضر فيها ولا نفع

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر — ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم — فالقرشيون ورقة بن نوفل الأسدى من أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى من عدى بن كعب ، وعثمان بن الحويرث الأسدى من أسد بن عبد العزى ، والرابع عبيد الله بن جحش الأسدى من أسد بن خزيمة وأمه أمية بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنامهم فقالوا : تعلمن والله ما قومكم على شىء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يصر ولا ينفع يا قوم التمسوا

لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء ؛ فتفرقوا فى البلدان يلتمسوا الحنيفية دين إبراهيم

فأما ورقة فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب

وأما زيد فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يبعث أمة وحده وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده

وأما عبيد الله بن جحش فأقام عل ما هو عليه من الالتباس حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانيا

وكانت لا تزال كهان العرب وذو الأسجاع منهم يهتفون بذكر نبى حان مبعثه ولا يبعد أن أخبارهم هذه إنما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤا من السجع الذى امتازوا به فى ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر فى ذلك الوقت نبيا يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوؤهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم وغالبين على أمرهم إذا اشتبكوا فى حرب وقد روى ذلك عن بعض الأنصار من هذا يفهم أنه كان قبل مجىء الإسلام فى حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد إلى شيء ما من التغير فى عبادة الأوثان ، ولا إلى شيء من إصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت فى الأنفس شيئا من الاستعداد لقبول الإصلاح الإسلامى

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وله أولاد أشراف عظماء ، منهم

أبو طالب وعبدالله وحمزة وعباس وأبو لهب وعبدالمطلب ذو السن من بيت عبدمناف الذى هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبدالله آمنة بنت وهب وهى من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش فبنى بها عبدالله فى مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام فلما وصل المدينة - وبها أخواله من بنى النجار - أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وإنما كان بنو النجار أخواله لأنّ منهم أمّ أبيه عبد المطلب

وفى صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأوّل لأوّل عام من حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان . ويوافق العشرين من شهر إبريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكى محمود باشا - ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بنى هاشم بمكة ، ولما ولدته أمّه أرسلت إلى جدّه عبدالمطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار المولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفا عندالعرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لأحد أشراف تميم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمى الشاعر المشهور ويستنتج المؤرّخون أنّ اختيار هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبى منتظر من العرب وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية لأمرين (الأوّل) إنهم يبتعدون فى البوادى عن أمراض الحواضر التى كثيراً ما تصيب الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشتدّ أعصابهم لما فى هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثانى) أنهم يتقنون اللسان العربى فى مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتا وأسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبدالله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت أبى ذؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المكنى بأبى كبشة من قومها فأقام مسترضعاً فيهم قريباً من أربع سنوات ثم ردّته إلى أمّه بعد ذلك فأقام معها بمكة

كانت لآمنة عادة مذ توفى زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبدالمطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما

هى راجعة إذ مرضت فى الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فعاد عبدالمطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً . قال ابن هشام كان يوضع لعبدالمطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبدالمطلب - إذا رأى ذلك منهم دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ولثمانى سنوات من عمره توفى بمكة جده عبد المطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبى طالب عمه شقيق أبيه فإن أبا طالب والزبير وعبدالله أولاد عبدالمطلب كانت أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - أو ثلاثة عشرة - خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصلا بصرى وهى معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان وكان فى هذا البلد على ما ننقله من كلام مؤرخى العرب راهب اسمه بحيرا فى صومعة له فكان له حديث مع أبى طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفا عليه من عدو يترصده وأخبره أن له شأنا فرجع به أبو طالب إلى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبرى فى كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيرا عن اسم هذا الراهب فى كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سنا وشرفا وكان رئيس بنى عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبدالله ، وكان ينبل على عمومته أى يجهز لهم النبل المرمى . وحدث بعد ذلك تداعى قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته وتم ذلك الحلف فى دار عبدالله بن جدعان التيمى وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الأسدية من بنى أسد ابن عبد العزى وكانت سيدة محترمة فى قومها ذات يسار تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورا فى قومه بالأمانة حتى كانوا يسمونه بالأمين فعرضت اليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عاد إلى مكة ويروى ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهرى أن هذه الرحلة التى ذهبت فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشه باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الأمين أن يتزوجها فرضى وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة أقامت معه منها خمسا وعشرين وهى أم أولاده جميعاً ماعدا إبراهيم الذى ولدله بالمدينة فإنه من مارية القبطية التى كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا ولها فى تاريخ الإسلام أجمل ذكر وأصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فإنها كانت وضيمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد ابن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شىء ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا فى البناء على قواعده والذى تولى البناء بناء رومى اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة أذرع وصعدوا بها فى الجو حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداءاً ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ٥٠ ، ١٠ م من أرضية

المضاف والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٠،٢٥ م ومتوسط عرضها ٠،٣٠ م، تسمى بالشاذروان وهى من أصل البيت ولكن قريشا تركتها واستظهر محمد لبيب بك البتانونى فيما كتبه عن الكعبة فى رحلته الحجازية التى اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم محدث إما فى عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف

وللكعبة أربعة أركان : الشمالى واسمه الركن العراقى والغربى واسمه الشامى والجنوبى واسمه اليمانى والشرقى واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهى أثر لحام القطع التى كانت انفصلت منه وقطره نحو ٠،٣٠ م والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالها الحائط الشمالى الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت ويبعدان عنها ٢،٣٦ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١.٥٠ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ١،٤٤ م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريبا فى بناء إبراهيم ويقال إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان فى الحجر

السيرة الأدبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبدالله كان فى قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالا بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئاً قليلا وكان عمله حين شب التجارة ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها فى الربح وكان يشارك غيرها أحيانا ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولا بد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين فى موضع البحث وهى هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الأئمة منهم إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه

فقال جمهورهم إنه لم يكن مكلفا باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بأنه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة لياخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعى على نقله ولم ينقل شىء من ذلك

وتوقف فى الرأى بعض الأئمة كالغزالى وشيخه إمام الحرمين والآمدى لأنهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم فى مثل تلك المسألة

وقال بعضهم إنه كان متعبداً بشريعة ولكن ماهى تلك الشريعة اختلفوا فى تعيينها فمن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأى ليسوا مرتكزين على دليل قوى يعضدهم وإنما هى مجرد أفكار

واختار الكمال بن الهمام من الأصوليين مذهبا مبهما وهو أنه متعبد بما ثبت أنه شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير فإن لم يعلم الأخير فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموما وخصوصا ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقال إن هذا الدليل يوجب التعبد فى غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاق والذى نراه أن التفصيل فى مثل هذه المسئلة إنما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لأن مثل هذا الرأى يلزمه أن الإنسان مطلوب منه أن يتطلب جميع الشرائع الماضية التى سبقت ويعبد الله بما يثبت أنه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع أنه عليه السلام فعله حتى كنا نقول أنه أدّى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوّته رفض الأوثان وعبادتها والتقرب إليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الأخلاق التى فى مقدمتها الصدق والأمانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد فى غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذى على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكراً فى خالق الكون الأعظم وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون إنه أوّل من تعبد فيه

ولم يعلم عنه أنه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات فى الشرائع التى سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة فى أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة فى الكتاب (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقال فى سورة الضحى مما امتن به عليه (ووجدك ضالا فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوّة

المحاضرة الثامنة

البعثة ـ الوحى ـ الدعوة السرية ـ الجهر بالدعوة
ماكان من قريش ـ هجرة الحبشة

البعثة :

الذى يختارهم الله لإصلاح الأمم يأتى إليهم مايريد أن يبلغوه عنه بالوحى والوحى ـ فى لغة العرب ـ إعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة أنّ هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبئ عليها تلك النتيجة بل هى أشبه شىء بالعلم الضرورى الذى لايتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة فى القرآن ، وفى لسان العرب لغير إعلام الله لأنبيائه فقال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا) وقال (وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبراً عن يوسف فى صغره (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكل هذا لايعدو معنى الإلهام الذى ربما شعر به كثير من الناس

أما إعلام الله أنبياءه المختارين فإنّ العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الإنسان هو أن يحوم حوله مستعينا بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقتطف منها مايقرب ذلك إلى العقل الإنسانى هذا الإعلام له مراتب

الأولى : أن يخاطب فى النوم وتلك هى الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً فى التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب إلى إبرام فى الرؤيا قائلا الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان إبراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح (يابنى إنى أرى فى المنام أن أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الأنبياء حق ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

المرتبة الثانية : أن يأتى مايراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك

هو المسمى بالإلهام والإلقاء فى الروع ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التى تحدث بالخير وتلقيه فى النفس ملكا على العكس من القوة التى تحدث بالشر وتلقيه فى النفس فإنه يسميها شيطاناً ولفلاسفة المسلمين غرائب فى كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقد يستروحون بقوله تعالى فى الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة : أن يرسل الله إليه رسولا يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملاك للأنبياء فى التوراة كثيراً

المرتبة : الرابعة أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العقلية المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)

هذه هى المراتب التى عرف أن الوحى يبلغ قلوب الأنبياء عليها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهى ركوز المعانى فى القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيئا من جنسها لمن فنى فكرهم فى أمر أوحادثة فإنك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقا ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض وإنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلى الأنفس مالا يحس به وليس فى مكنتها أن تدرك حقيقته : إذا كان الفناء فى مسألة أوحادثة يجعل الإنسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء فى الإله أنا لا أستغرب ماقرأته فى بعض الكتب أن صوفيا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لأنى أعلم أن الجندى يصاب فى الموقعة بالجرح المؤلم فلايحس به ويمضى لشأنه حتى إذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلى أمر جسمها أحست بالألم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الأنبياء عند الوحى من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتى لا يحسون بأحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى ! فقال أحيانا يأتينى مثل

صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ماقال وأحيانا يتمثل لى رجلا فأعى مايقول

ومما روى أنه كان يكابد من التنزيل شدته حتى أنه كان يوحى اليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا تكلم فيه على الوحى والرؤى ولكن قلما يظفر الإنسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول مابدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخارى من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته إذ جاءه الوحى وذلك فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و ٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام : وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ . ولا معنى للاختلاف فى تحديد اليوم بالتقويم العربى بعد أن أشار اليه الكتاب إشارة ظاهرة لا تخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله [1] عاما لأول يوم نزل فيه القرآن . وليلة نزول

(١) جرت العادة فى التعبير أن نجعل اليوم المعين عدده محلا لكثير من الوقائع مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحدا بالشخص وإنما هو بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية يبين أنه لا يصح أن يراد منها غير هذا لأن الذى فرق الله به بين الحق والباطل إنما هو اختيار الله محمداً لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين فى موقعة مما يرتقى إلى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ماوقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكى من الخطأ حيث جعل الرسالة فى ربيع الأول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذى أوقعه فى الخطأ مافى بعض الروايات من أنه عليه السلام بعث على رأس الأربعين

القرآن هى التى قال فيها الكتاب (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) وهذا هو السبب فى تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذى كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكارا لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهى المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك إذا تنبه إليه الإنسان أبعده عن كثير من التعاليم التى تلقى إلى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحى بما أخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما أقرأ ؟

قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ قال : قلت ماذا أقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ قال فقلت ما أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق : اقرأ وربك الأكرم : الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم)

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا فخرجت حتى إذا كنت فى الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة فى طلبى فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مصغيا إليها فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ثم قامت فجمعت [1] عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة

---

(١) هذه رواية ابن هشام

قد تنصر وقرأ الكتب وسمع أهل التوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذى نفسى بيده إنك لنبىّ هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام بما كلف به إلا أن يحمل أعباءه التى لا يحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

ومما يزيد هذا العبء ثقلا وشدة أنه ابتدئ تحمله فى مكة وهى مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة - إلى هذا الدين - فى بدء أمرها - سرية لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم - ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد - فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحرّى الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين ، وفى مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى ، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلى بن أبى طالب وكان يعيش فى بيت رسول الله تخفيفاً عن أبى طالب لما كثر ولده وأبو بكر بن أبى قحافة عثمان التيمى ؛ وكان أبو بكر محبوبا فى قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نفراً ، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموى والزبير بن العوام الأسدى وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمى ؛

ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلبي وسعيد بن زيد العدوى وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش ، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفياً فى دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومى بمكة ـ لأن الدعوة كانت لاتزال فردية وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخى

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه فى خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى فى سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين الله إلى الضلال وجر ذلك إلى تضليل آبائهم فإنهم كانوا يحتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ماوجدوا عليه آباءهم وتلك هى العقبة الصعبة فى سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ماعسى أن يهم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم ، وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق ـ بحسب أصول العربية ـ أن يجير ! فإن فعل كان التعدى على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره . وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الإطلاق . فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه فى الدعوة والجهر بما ينزل عليه من الوحى

لما رأت قريش أنه صار فى منعة بجوار أبي طالب مشى رجال من أشراف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم أو يخلى بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلا فانصرفوا عنه . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية قائلين إنهم لايصبرون على هذا الحال !! وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم

يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له يا ابن أخى إنّ قومك جاؤونى وقالوا لى كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق فظنّ الرسول أنّ عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك دونه - ما تركته ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخى فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبداً

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه مشوا إليه بعمارة ابن الوليد وقالوا له إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب لبئس ما تسوموننى أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟! ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه قام فى أهل بيته بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبد شمس ونوفل - ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربى إلا ما كان من أخيه أبى لهب فإنه فارقهم وكان مع قريش ولا أدرى أفضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال ؟ ولا أظن أن كونه من أم أخرى غير أم أبى طالب يدعوه إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير فى قلوب العرب بين الأخوة لأن العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شىء ولا يبعد عندى أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا لأن أم جميل كانت من ألد أعداء رسول الله حتى أنها كانت تذيع عنه الأكاذيب فى مجامع النساء فتشعل بتلك الأكاذيب نار العداوة فى قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت فى السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد حتى لا يكون لدعوته أثر فى أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون فى تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضا فإنّ ذلك

يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال واحد منهم نقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذو السن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه فقال آخر نقول مجنون : فقال الوليد ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ماهو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسه : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر فقال آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ماأنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها ولما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف أهل بيته من بنى عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشىء أبداً وفيها يقول :

كذبتم ـ وبيت الله ـ نترك مكة ونظعن إلا أمركم فى بلابل
كذبتم ـ وبيت الله ـ نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيها يقول :

فوالله لولا أن أجىء بسبة تجر على أشياخنا فى المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبى طالب ماأرادوا عمدوا إلى الفتنة [1] فمن

---

(١) يقال فتنت الفضة والذهب إذا أذبتها بالنار لتميز الردىء من الجيد واستعملت فى الابتلاء والامتحان والاختبار ـ والمراد بها فى لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه

جهة الرسول أغروا به سفاءهم وهم العدّة فى مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحا فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لايستخفى منه مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم لايبالى بما يصنع سفاؤهم معه

وأما من جهة من اتبعه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه — وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب — قال لهم لوخرجتم إلى الحبشة فإنّ بها ملكا لايظلم أحدعنده حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ففرّوا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أوّل هجرة فى الإسلام وكان المهاجرون أوّلا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعدذلك جماعة آخرون حتى كانت عدّتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشى مثواهم وأعلنوا هناك عبادتهم لايخشون شراً ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون فى منزلهم الجديد !! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى النجاشى ويطلبا منه ردّهم إلى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهذان الرجلان هما عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة وأتحفا البطارقة والنجاشى بالهدايا قالا له أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاؤا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولاأنت وقدبعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردّهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أنّ هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم فى هذه الرسالة فإنّ السيدة أمّ سلمة إحدى المهاجرات ورواية هذا الخبر تقول ولم يكن شىء أبغض إلى عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشى : فلما أدّيا الرسالة قال النجاشى لاها إذاً لاأسلمهم إليهما ولايكاد قوم جاورونى ونزلوا فى بلادى واختارونى على سواى — حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ؟ فإن كان كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم

ماجاورونى ، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين فجاؤا فقال لهم ماهذا الدين الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل فكلمه جعفر بن أبى طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق : ثم قال إنّ قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشى أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشى هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا . فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال عبد الله لا تفعل ! فإنّ لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أنّ عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشى فقال أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما فسلهم عنه فطلبهم النجاشى ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر نقول فيه الذى جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود ، فأغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شيوم - ومعنى هذه الكلمة بالحبشة آمنون ، ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة - قبل الهجرة إلى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة، وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذى كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمتقمين ممن أسلم

ومما يدل على شدّة شكيمته على المسلمين ماروته أمّ عبد الله بنت أبى حثمة قالت والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علىّ وهو على شركه قالت وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدّة علينا قالت فقال إنه الانطلاق

يا أمّ عبدالله قالت فقلت : نعم والله لنخرجنّ فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا قالت فجاء عامر (تعنى زوجها) فقالت له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت فى إسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلايسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام

المحاضرة التاسعة

فى مقاطعة قريش لبنى هاشم والمطلب ـ هجرة الطائف ـ العرض على قبائل العرب وإجابة الأنصار ـ البيعة ـ الهجرة

رأت قريش أنّ حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب ـ مسلمهم وكافرهم ـ والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا إلى حيلة أخرى وهى مقاطعة بنى هاشم والمطلب : فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك ، فانحازت بنو هاشم والمطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو لهب بن عبدالمطلب إلى قريش فظاهرهم

أقام أبو طالب فى الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشدّ الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمرّ على دعوته يدعوهم ليلا ونهاراً سراً وإعلاناً منادياً بأمر الله لايتقى فيه أحداً من الناس

كان فى رجالات قريش من تأثر لحال بنى هاشم وبنى المطلب وأعظمهم فى ذلك أثراً كان هشام بن عمرو ، ومن بنى عامر بن لؤى وكان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف فى قومه فمشى إلى زهير بن أبى أمية من بنى مخزوم ، وقال له يازهير : أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء

وأخوالك حيث قد علمت لايباعون ولايبتاع منهم ولاينكحون ولاينكح اليهم :
أما إنى أحلف بالله أن لوكانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك
اليه منهم ماأجابك اليه أبداً !! قال ويحك ياهشام إنما أنا رجل واحد والله لوكان
معى آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟
قال أنا قال زهير ابغنا رجلا ثالثا فذهب إلى مطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل ابن
عبد مناف فقال له مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد
على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعا
قال ويحك ماذا أصنع فإنما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا قال من هو ،
قال أنا قال ابغنا ثالثا قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى أمية قال ابغنا رابعا
فذهب إلى أبى البخترى بن هشام فقال له نحوا مما قال لمطعم وأعلمه بما اتفقوا عليه
فقال ابغنا خامسا فذهب إلى زمعة بن الأسود من بنى أسد ابن عبد العزى فكلمه
وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الأمر الذى تدعونى
اليه من أحد . قال نعم : وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا
هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير أنا أبدؤكم فلما أصبحوا
غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبى أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على
الناس فقال ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى
لايباعون ولايبتاع منهم ؟!! والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفه الظالمة القاطعة
فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لاتشق فقال زمعة أنت أكذب مارضينا كتابتها
حيث كتبت ، قال أبو البخترى صدق زمعة لانرضى ماكتب فيها ولا نقر به ، قال
المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها
وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشور فيه
بغير هذا المكان وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها
فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ،
ولايتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب
الرسول بمصيبة عظيمة وهى وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد فى يومين

متقاربين فى شهر شوال ، وكانت خديجة له وزير صدق على الإسلام يشكو اليها وكان عمه عضدا وحرزاً فى أمره ومنعة وناصرا على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول مالم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا

رأى الرسول أنه لابد له من عضد يوازره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدى رسالة ربه فذهب إلى الطائف ـ وبها بطون ثقيف ـ وعمد إلى أشرافهم وذوى الرئاسة منهم وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء له من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فردعليه ثلاثتهم ردا قبيحا فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم بن عدى يخبره أنه يدخل مكة فى جواره فأجابه إلى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله أن ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله ففى ذلك يقول حسان بن ثابت فى رثاء المطعم لما توفى

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك مالبى مهل وأحرما

كان الرسول يقوم فى مواسم الحج داعياً من أقبل إلى مكة من سائر العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوموا دونه حتى يؤدى رسالة ربه فكانوا لايجيبونه إلى ذلك ، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً : عرض ذلك على بنى عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لاحاجة لنا بأمرك ! وعرض ذلك على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبح رداً منهم

فى ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين الأوس والخزرج وكانت الخزرج أكثر عدداً ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع وإياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا

وما ذاك ، قال أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل عليّ الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاما حدثا أي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه إياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها في التاريخ يوم بعاث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزراً بعد أن انهزمت أول مرة

في الموسم الذي كان بعد هذه الحرب أقبل إلى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعونه وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لأمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر ـ وافى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلا . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار ابن قصي

وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم فى المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سببا كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب فى الإسلام فأسلم أسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس فى يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه فى ناديهم ، فقال يابنى الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة ، قال فإن كلام نسائكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذى نزل عليه مصعب قدم ثابتة فى دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس أخرها عن الاسلام صيفى بن الأسلت المكنى بأبى قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بنى مازن ابن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمرو إحدى نساء بنى سلمة من الخزرج ، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يامعشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه - بعد الخروج به إليكم - فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده ، فقال المتكلم من

الخزرج قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فإنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعنى يهود المدينة) فهل عسيت : إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله — أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، قال فتبسم الرسول ثم قال : الدم الدم والهدم الهدم يعنى أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس فقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى وهاهى أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بنى النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بنى مالك بن امرئ القيس من الخزرج

(٣) عبدالله بن رواحة من بنى عمرو « « « «

(٤) رافع بن مالك من بنى زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور من بنى سلمة بن سعد

(٦) عبدالله بن عمرو « « « « « « من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت « « غنم بن سالم « «

(٨) سعد بن عبادة « « ساعدة « «

(٩) المنذر بن عمرو « «

(١٠) أسعد بن حضير من عبد الأشهل من الأوس

(١١) سعد بن خيثمة من بنى كعب بن حارثة « «

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الأشهل من الأوس

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعا البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون أنّ أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الأشهل يقولون إنه أبو الهيثم ابن التيهان : والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم : بعد ان انتهت

المبايعة أمرهم رسول الله أن يعودوا إلى رحالهم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشا فجاء رؤساؤهم إلى منازل الأنصار وقالوا يا معشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبدالله بن أبي ابن سلول — وهو سيد من سادتهم لم يسلم أن هذا الأمر جسيم : ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا وما علمته فانصرفوا عنه

نفر الناس من منى وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم الأنصار

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها فخرجوا إرسالا رجالا ونساء إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين

لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فلم يبق إلا أخذ الحيطة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشراف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم الرأي أن نحبسه في الحديد ونغلق عليه بابا ثم نتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم فقال شيخ فيهم ما هذا لكم برأي لئن حبستموه ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . فقال آخر منهم نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأي !! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد : فقال أبو جهل بن هشام إنّ لي لرأيا فيه ما أراكم وقعتم عليه ، وهو أن نختار من كل قبيلة شابا فتى جلداً

نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا . فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم فكان رأيه هذا مقبولا عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التى ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبى بكر وأخبره أنّ الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيآ مايلزم لهذا السفر : راحلتين ودليلا خريتاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير فى الليلة التى اتفقت فيها قريش على الفتك به فى صبحها ، وفى تلك الليلة أمر ابن عمه على بن أبى طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب احد فى وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدّى عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده فى الليلة التى تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج إلى بيت أبى بكر ، وخرجا معا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد الله بن أبى بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى فى الغار ليعفى أثر عبد الله بن أبى بكر وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون على بن أبى طالب لا محمد بن عبد الله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل فى طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالاً ولكنها عادت بالخيبة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل ــ حسبما اتفقا معه ــ بالراحلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق والدليل اسمه عبد الله بن أريقط فسلك بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة

لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذى العصوين ثم بطن ذى كشد ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهى من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام

وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه السلام فنتبعه بفصلين أولها فى التشريعات المكية والثانى فى آثار هذه المدة

المحاضرة العاشرة

التشريع المكى

مكث الرسول فى مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر و ٢١ يوما إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه فى أثنائها معظم القرآن والذى نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقى ـ وهو اثنتان وعشرون سورة ـ نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهى (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١١٠) النصر . وما عدا ذلك فهو مكى

وقد اشتمل التشريع المكى على أهم ماجاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأجله وبين روحه قوله تعالى فى سورة الشورى ﴿شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ ثم قال ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾

امتاز التشريع المكى بما يعبر عنه أبو إسحاق الشاطبي فى الموافقات بالتشريع الكلى وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله - من الشرائع الأبدية التى لا يخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع - فيما مضى وفيما هو آت - أن يكون متبعا لها منقاداً لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته فى القرآن فى سورة الحج (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وأعلن أنه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الأنبياء وقال له الله عنهم - فى سورة الأنعام - بعد أن قص عليه أسماءهم (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) إلى غير ذلك وأهم ماجاءت به الآيات المكية هو :

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة .

معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام ، وكل ماهو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنعى على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحاً وتلميحاً : ضربت الأمثال بالأمم السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم الأنبياء والرسل ، وكررت ذلك تكراراً مؤثراً بأساليب مختلفة : لأن أشد مايفعل فى النفوس لإثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب . وأكثر الأنبياء ذكراً فى آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات ألوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلى الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقوع فى هذا الشرك ، وإيعادهم بالشر إذا هم عادوا إليه : وقلما نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليه أبوهم إبراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال

لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير فى هذه الأنفس التى أشربت حب هذه المعبودات الباطلة

وجر ذلك — بالضرورة — إلى تحريم كل ماذبح على النصب أوجعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة مالم يذكر عليه اسم الله ليكون الإنسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فإنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماما ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التى يشرع فيها الإنسان لابد أن تفعل باسم الله لاباسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لأنّ الأمر كما علمتم — يحتاج إلى مقاومة شديدة فإنّ النفس المتشبعة بالشيء الذى نهيت عنه لايؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن إليه . للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الأخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهى وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الأوامر : مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأنّ التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة بيد غيره يدخن بها لاشكّ أنه يحسّ بحركة فى نفسه تذكره بذلك الألف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولا ينسى الأمر بتاتا إلا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الإنسانى كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسدّ الذرائع : ولذلك لما رأى عمر ابن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التى بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى الحديبية أمر للحال بقطعها وإعفاء أثرها

(٢) إثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، وقد نصبت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة فى خيره وكررته تكراراً عظيما يقرب مما كان فى أمر التوحيد والأوثان ونصت على أنّ العدل سيجرى

بجراه بعد أن توزن أعمال الإنسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب إذ لا يمكن أن يعقل فى الوجود الإنسانى من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها فى الناس

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافا ترغب وتخيف وكرر ذلك فى مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنوانا على ما يناله صاحبه مهما دقّ (ولا يظلم ربك أحدا) (فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره) أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع إلى فعل الخير وأخبرهم أنّ الحسنة إذا تلت السيئة محتها . والذى يفهم من القرآن أنّ الحسنات المؤثرة فى محو السيئات إنما هى العملية

(٣) بين لهم الخصال التى تقرب إلى الله والتى تبعد منه ومعظمها يرجع إلى الأخلاق والملكات فى معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول فى سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)

ويقول فى سورة الأعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ويقول فى الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) ويقول فيها (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إنّ الله غفور شكور) وقال فى سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) جمع لهم فى سورة الإسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلى كل وصية بفائدتها اقرؤا - إن شئتم - من قول الكتاب (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى قوله (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) وصف عباد الرحمن فى سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ، إلى آخر السورة ، واستقصاء

ذلك يستدعى وقتا طويلا وإنما نحن نشير إلى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الأوهام حتى تعلموا بم كان يوصيهم وكيف كانوا يجيبونه ؟ ؟ فإنه لاشيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذى أنزل الله عليه

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبدنى منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها فى كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحى كيف يؤديها - كما ورد فى الأخبار الصحيحة - والصلاة وحدها هى التى فصلت تمام التفصيل بمكة . وتفصيلها إنما كان عمليا لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وإنما أخذ منها بطريق الإشارة وقد نقلت نقلا عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التى أمر بها بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر واعتبر فى سورة الماعون ممن يستحقون الويل (الذين هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم إنها فرضت ليلة الاسراء حينما عرج برسول الله إلى الملأ الأعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا : الإسراء مصدر أسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلا ، ويراد به - فى لسان المحدثين - تلك السياحة الليلية التى وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته . والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السلم المدلى ويراد به صعود رسول الله إلى الملأ الأعلى

الإسراء ورد ذكره فى الكتاب فى أول سورة سميت باسمه قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأن السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله أخبر بها قومه فى صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفى مقدمتهم أبو بكر الذى سمى فى ذلك اليوم بالصديق - وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى أن بعضا منهم ارتد

واختلف المتكلمون فى أمر الاسراء : فروى عن معاوية بن أبى سفيان أن الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وروى عن عائشة أن الإسراء

إنما كان بروحه لأنّ جسنمه لم يزل من مكانه ونرى أن نتيجة القولين واحدة ، لأنّ الإسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قدمات إذ لم يقل بهذا القول أحد لا عائشة ولا غيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله فى حالة النوم على شىء من الآيات التى هى فى جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا ـ كما قدمنا ـ نوع من الوحى للأنبياء ويستدلّ أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى فى السورة نفسها (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) وقد قال الحسن البصرى راوى حديث الإسراء فأنزل فى ذلك قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا) الخ

وجمهور المسلمين على أنّ الإسراء كان بجسمه ويستدلون على رأيهم بأنّ الإسراء لو كان رؤية ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لأنه ماالذى يستبعد من اطلاع إنسان على أقصى مافى الأرض فى رؤيا يراها

بعض المؤرخين يميلون إلى رأى عائشة ومعاوية ، لالأنهم يحيلون أن يقع للأنبياء أمر خارق للعادة ، بل لأنهم لايتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواته عيانا وصرحوا بمشاهدته فى رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأنّ الإسراء كان رؤيا صادقة يدلّ على أن هذا القول لم يكن بدعا فى زمنهما لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أنّ أحداً قام فى وجههما راداً عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن إسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولها القول الحسن فأنزل الله فى ذلك (وماجعلنا الرؤيا) الخ وعائشة زوج الرسول ـ وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة ـ أدرى الناس بما كان من حوادثه التى أكرمه الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصاً فى مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم فى وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يردّون عليه القول ردّاً شديداً فى أيسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل . لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب فى أمر هذه الحادثة وجدوه يقول « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاع الله نبيه فى نومه

على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه فى يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلا

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفى - لأن يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوا منه عليه السلام أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون فى أنفس الناس قوله ، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء فى الكتاب - (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن إسحق بعد أن ذكر القولين والله أعلم أى ذلك كان قد جاء وعاين فيه ما عاين من أمر الله على أى حاليه - نائماً أو يقظان - كل ذلك حق وصدق اه

أما المعراج فلم يرد ذكره فى القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق فى شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة مرات منها المرة التى كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحى يقولون بالمعراج الروحى والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلانى فى كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن رأى من يقول بالإسراء الجسمى

لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون فى أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله قبل أن يوحى إليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحق بعد فشو الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبى طالب . ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى أول الأمر يصلون الصلوات الخمس ، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماما فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحى أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل

الذى تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فإنا قلما نجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة مايخرج من الأرض فى سورة الأنعام (وآتوا حقه يوم حصاده) إلا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولا لما فى النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

ومما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحسّ فيها بأمر مدهش ذلك أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمكة مضطهداً فى حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا فى سبيل دعوته فى ذلك الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدّة مما يدل على أنّ الرسول كان على يقين من الله تام بأنّ العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالؤا عليه ومرة يرد أقبح ردّ من العرب الذين يردون الموسم ، وها نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدّة بما نتلوه عليكم من الآيات [1] (ولتعلمنّ نبأه بعد حين) [2] (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [3] (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [4] (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر) [5] (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) [6] (قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) [7] فقد كذبوا (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) [8] (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) [9] (فاصبر إنّ وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) [10] (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) [11] (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) [12] (فارتقب إنهم مرتقبون) إلى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع والتى ظهر نبؤها بعد حين

كان يفعل الأمر ويرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجه أنّ صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحى مشتداً ومنها كما حصل فى حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى فقد حدث أنّ رسول الله قابل جمعاً

---

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر (٥) سبأ
(٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم (١٠) السجدة
(١١) السجدة (١٢) الدخان

من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم إليه ؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يارسول الله علمنى مما علمك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعا فى أولئك العظماء ، فجاءه الوحى بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدّى وما عليك أن لايزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وهذه شدة أدبه الله بها كما قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى

(٥) مما شرع فى آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعى عناية كبرى فى بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ماشرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لايتجزأ فتضيع الفائدة : وبحثنا قاصر على الجهة التاريخية ، ولذلك نقتصر على ماجاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ماامتازوا به من دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا

المحاضرة الحادية عشر

أسباب شرعية القتال - المواثيق والعهود - أسرى الحرب - الاسترقاق - لم شرع القتال - ؟

بين الكتاب فى مواضع منه السبب الذى من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الأول) الدفاع عن النفس عند التعدّى ، الثانى : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن أى باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا أو بصد من أراد الدخول فى الإسلام عنه أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته وهذه هى المواضع التى جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الأول - جاء فى سورة الحج ، وهو أوّل ماأنزل فى أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق ألا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق) ثم بينت أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله فى الأرض ذكر . ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هى فى الحقيقة تنبيه لهم إلى مايجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

الموضع الثانى - قوله فى سورة البقرة المدنية (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل - ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله - فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين - الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين)

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم فى دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهى أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حراً فى دينه لايدين به إلا لله لاخوفا ولا طمعاً وقد بين الكتاب أنّ الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر مايكون من بنى الإنسان : نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أنّ الله يبغض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أنّ الجزاء عند الاعتداء - لاينبغى أن يتجاوز به مافعله البادئ بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث ـ قوله فى سورة النساء المدنية « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما (أولا) سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التى يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع ـ قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانباً : (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لاذبذبة عندهم فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)

بينت هذه الآيات أن لاسبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى اليهم السلام

الموضع الخامس ـ قال فى سورة الأنفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدى ماأدته آية البقرة

الموضع السادس ـ قال فى السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع ـ قال فى سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون

قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)

بينت هذه الآية سبباً لايخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطعن فى الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولا والناكثون عهدهم آخرا وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قدمالئوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين فى غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء فى سورة التوبة (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان أمر القتال أولا قاصراً على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة فى هذا الأمر بينها الكتاب نصا وهى اتحادهم على المسلمين ووقوفهم فى سبيل الدعوة

هذا ماورد فى الكتاب خاصا بأمر القتال ، وكله يعلن أن القتال لم يشرع إلادفاعا عن أنفسهم ، وتأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها وأعلن أنه لم يجىء متعديا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سالمه

ومما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها ماجاء فى سورة الممتحنة (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطواإليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها وقد نص على ذلك نصوصا مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول الكتاب فى أول سورة المائدة «ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود» وقوله فى سورة الاسراء (وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ وقوله فى سورة النحل ﴿ وأوفوا بعهدالله إذاعاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقدجعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون ، ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾

وأما الخاصة

فمنها قوله تعالى فى سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقال فى السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم ، أوظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد فى سورة الأنفال ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين ﴾ والخوف إنما يكون بعد ظهور مايدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لاسبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم فى سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وأنها تحمى الواصل اليها

ومنها أنه جعل فى سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال (وإن كان ـ المقتول خطأ ـ من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) وهذا بعينه هو الذى أوجبه فى قتل مسلم خطأ (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة فى قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال (فإن كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمدا بل ذكره مطلقا فى قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله فى سورة القتال « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداءاً حتى تضع الحرب أوزارها » فجعل ماخير فيه أولياء الأمور المن وهو العفو والإرسال من غير شىء والفداء وهو أخذ العوض. ولم نر فى الكتاب غيرهما

وأما ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء فى القرآن فى أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدى العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ، فقد قال فى سورة المؤمنين المكية « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » وقال مثل ذلك فى سورة المعارج المكية أيضاً أى قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال وقال فى سورة النساء المدنية « فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » ثم رغبهم ترغيباً شديداً فى تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث

الأولى — أنه جعله فى سورة البلد المكية من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال ممتنا على الإنسان « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة » فجعل فك الرقبة فى مقدمة الخصال التى بها يقوم الإنسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانية — أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعنى أن الإمام الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها فى فك الرقاب

الثالثة — أنه جعل تحرير الرقاب فى مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجترم فقال فى كفارة القتل الخطأ « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » وقال فى كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » وقال فى كفارة اليمين « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من

صاحب الشريعة فى تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان فى أيديهم منها

هـذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادئ التى سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذى امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لأن لذلك علماءهم أدرى به منا ومركزاً غير مركزنا التاريخى الذى يقضى علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفى ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الأنصار وصلى الجمعة بمسجد فى بطن وادى رانوناء فى منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مر على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم إلينا يارسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة (لناقته) حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل إن شاء الله فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه فى بيته ثم سأل عن المربد الذى بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لى وسأرضيهما منه [1] فاتخذه مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ونزل على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه فانتقل من بيت أبى أيوب إليها

ثم تلاحق المهاجرين فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس أما المدينة فعم أهلها الإسلام إلا قليلا منهم

ومن أول الأعمال التى عملها عليه السلام أنه كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه «وأن

---

(١) روى من طريق آخر أنه قال يابنى النجار ثامنونى بحائطكم فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. ويروى أنه أبى إلا بالثمن والذى اخترناه هو رواية ابن إسحق وهى توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخارى

من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين – ماداموا محاربين – وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بنى عوف وفيه وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول تآخوا فى الله أخوين

وبعد أن تمّ ذلك بدأت الأعمال العظيمة التى كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش فى التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة : الأعمال الحربية – التشريع – الأخلاق التى ساس بها أمته

المحاضرة الثانية عشر

ودان — بواط — العشيرة — بدر الكبرى — بنى قينقاع

الأعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركوا مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعيا إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التى يذهبون بها إلى الشام والتى يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثنى عشر شهراً خرج فى صفر من السنة الثانية إلى ودان[1]

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم

وكان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة ، ثم رجع ولم يلق كيداً : أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الأول . وفى مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة ابن الحارث فى ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المسرة[١] فالتقى بها جمعا من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية . وبعث فى هذه المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص[٢] فى ثلاثين راكبا فالتقى أبا جهل بن هشام فى ذلك الساحل فى ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعا للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

بواط[٣]

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الأولى

العشيرة[٤]

فى جمادى الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانية ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفى مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار[٥] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيدا

سفوان

أقام عليه السلام بالمدينة قليلا بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز بن جابر

لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية . وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قريبة من الجحفة التى هى على أربع مراحل من مكة وست من المدينة

(١) ثنية فى شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون منها إلى الشام (٣) موضع قرب جبل رضوى : ورضوى على مسيرة يوم من ينبع ، ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب إلى الشام (٤) واد بالقرب من مكة قريبا من قديد (٥) واد قريب من ينبع

الفهرى أغار على سرح المدينة فخرج فى طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان [١] من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفى مقامه هذا أرسل عبدالله بن جحش - ومعه ثمانية رهط من المهاجرين - بأمر غير مفتوح - وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمى حليف لقريش فائتمر بها عبدالله هو ومن معه (ولم يكن هذا مابعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستأثر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والأسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم ؛ وقال ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقطف أيدى القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال

ولما كثر الكلام فى ذلك جاءه الوحى بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعنى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد فعلوا ماهو أشنع . صدّوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس فى دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشدّ من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفى هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام فى زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا

---

(١) واد من ناحية بدر

من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول ، فندب إليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس نخفّ بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يأتي حربا وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج.

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فأخبر - وهو يسير أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلا يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير فى أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادى - يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة يامعشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث - فتجهز الناس سراعا وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا فكانت عدتهم بين التسعمائة والألف ولم يزالوا فى سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادى بدر.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصرى ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى إذا كان قريبا من الصفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى إذا قارب بدراً جاءته الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا ، وقال له المقداد بن عمرو امض يارسول الله لما أمرك الله فنحن معك ! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد [1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا علىّ أيها الناس وإنما كان يريد الأنصار ، لأن العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه مادام فى ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه فى المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم ؛ فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؛ قال

---

(١) موضع أقصى أراضى هجر

أجل فقال له سعد قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ! فوالذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك مناما تقربه عينك فسر بنا على بركة الله فسرّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ؛ ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريبا من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالعير وإن قريشا وراء وادى بدر - وكان أبوسفيان قدساحل بالعير فنجا ، وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبوجهل وقال والله لانرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة تشدد أبى جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً فى صفوف المشركين زهرى ، وكذلك لم يشهد من بنى عدى أحد : مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادى الدنيا ، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ؟ وقال له يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولانتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأى والحرب والمكيدة ! : قال يارسول الله فإنّ هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون فقال له لقد أشرت بالرأى وفعل كما قال

ثم إنّ سعداً قال الرسول يارسول الله ألانبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ماأحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يانبىّ الله مانحن بأشدّ لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك

يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

تراءى الجيشان : فلم يكن بد من الحرب فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة ـ حسب القواعد العربية ـ فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بنى عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبى طالب فكان عبيدة بإزاء عتبة وحمزة بإزاء شيبة وعلىّ بإزاء الوليد فأما حمزة وعلى فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما ـ وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب فى ذلك النهار ، فإنّ الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل ابن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون : ولما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين ، وكانت هذه عادته فى حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما ـ وهو عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، والآخر ـ زيد ابن حارثة ـ إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفى عودته قتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان غالياً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثانى عقبة بن أبى معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فرّقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز ابن عمير : كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ! قال فأستحى فأردّها على أحدهم فيردّها علىّ ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر

ثم استقرّ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء

من قريش في الأسرى ، وكان بعض الصحابة - ومنهم عمر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم ، وكان رأى أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك ، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضي عليه السلام رأى أبي بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئاً من الغنائم ، فإن موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) وقد كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من من عليه بغير فداء منهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة

نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة الأنفال بأسرها وهي السورة الثامنة ، وقد بدأت بأمر الأنفال وأنها صارت لله والرسول يقضي فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقي - وهو أربعة أخماسها - للغانمين : وقد خص عليه السلام سهم ذي القربى ببني هاشم والمطلب ابني عبد مناف ولم يعط منه بني نوفل وعبد شمس ، ثم قص في السورة خروج المسلمين إلى هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله وتكلم : فيها عن السلم والجنوح إليها متى جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى إلى غير ذلك من الأحكام

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر إلى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فإن عددهم كان ٣١٤ رجلا ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها ، وقريش كانت بين التسعمائة والألف وعندهم من العدة ما ليس مع المسلمين

وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم مالا يخفى مكانه . ومع كل هـذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم مايستغرب فإنّ الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهزمت بقيتهم لاتلوى على شيء فلابد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أنّ المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أنّ الله وعـده إحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله تثبيتاً حين الموقعة بمـا أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم فى موقف يدافعون فيه عن أعز شيء فى الوجود وهو رسول الله الذى بين أظهرهم فلا يهمّ الواحد منهم أن تحين منيته لأنه واثق بمـا بعدها فهو يعدّ الشهادة إحدى الحسنيين وكل هـذا للمحارب بمثابة امدادات يراها متوالية الورود

وقد قيل فى هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ماقيل منه ماقالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث

يارا كباً إنّ الأثيـــل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحيـة ... ماإن تزال بها النجائب تخفق
منى إليـــك وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعنى النضر إن ناديتـه ... أم كيف يسمع ميت لاينطق؟
أمحمـد ولدتك خير نجيبة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربمـا ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق ؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز مايغـــلو به ماينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم - إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيـه تنوشه ... لله أرحام هناك تشـــقق
صبراً يقاد إلى المنيـة متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — لمـا بلغه هذا الشعر — لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هـذه الغزوة فى عقب شهر رمضان

الكدر

لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فاقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفى مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه حتى ـ كان من المدينة ـ على نحو بريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيّ بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضار المعاهدين لرسول الله والمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج فى عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام فى طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعا وقد فاته أبو سفيان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التى أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

وإنى تخيرت المدينة واحداً	لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقانى فروانى كميتاً مدامه	على عجل منى سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ـ ولم أكن	لأفرحه ـ أبشر بغزو مغنم
تأمر فإن القوم سر وإنهم	صريح لؤى لا شماطيط جرهم
وما كان إلا بعض ليلة راكب	أتى ساعيا من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريبا منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريبا من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلا منه

الفرع

خرج عليه السلام فى أواخر ربيع الأول يريد قريشا حتى بلغ بحران وهو معدن

بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيدا

أمر بنى قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم - كما قاله ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ابن قتادة - وظهر منهم بعد بدر ما كان خافيا من أعدائهم إذ أنهم قالوا له يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهرا بحادثة وقعت فى سوق بنى قينقاع ، سببها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعديا معيبا فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى اليهود فقتله ، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج اليهم رسول الله وحاصرهم فى ديارهم خمس عشرة ليلة فى آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل اليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة - ماء من مياه نجد - فأصاب تلك العير ومافيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمر كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف يهوديا من طيء ثم من بنى نبهان وأمه من بنى النضير ، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الأشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت شراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد ... ذى بهجة تأوى اليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع

ويقول أقوام أسر بسخطهم إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة أوعاش أعمى مرعشا لايسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه مانال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما يحمى على الحسب الكريم الأروع

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من الأنصار فقتلوه جزاء خيانته العهد

المحاضرة الثالثة عشر

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبدالله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان ابن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة الجمحى الذى منّ عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد منّ علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك فلك الله على أن رجعت أن أغنيك وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصبهن ماأصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير ابن مطعم غلاما له حبشياً يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة فأنت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم

بالطعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أيخرج إليهم أم يقيم فى المدينة ؟ فقال له عبدالله بن أبىّ بن سلول - وكان رأساً فى الأنصار إلا أنه كان يضمر نفاقا - نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى رسول الله لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلى بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال [1] حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يارسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام ماينبغى لنبىّ إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام فى ألف من الصحابة حتى إذا كان بالشوط انخذل عنه عبدالله بن أبىّ بن سلول بثلث الناس ، وقال أطاعهم وعصانى ماندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؛ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال ثم تعبى عليه السلام القتال وهو فى ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبدالله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قريش وهم ثلاث آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار يابنى عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ماقد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه ، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً

---

(١) حسب تقويم مختار باشا المصرى كان أول شوال الأحد فالجمعة ١٣ منه (١٩ مارس سنة ٦٢٥)

إذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلمون من المسلمين منهم حمزة بن عبدالمطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدى وعلى بن أبى طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها - إلا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل فى صفوف المسلمين حتى دهشوا ، ومما زاد فى دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلا قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى رمى بالحجارة ووقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ووقع فى حفرة من الحفر التى حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لايعلمون فأخذ على بن أبى طالب بيده ورفعه طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائما ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه وقاتلت فى ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهى ممن بايع بيعة العقبة وكانت فى أول النهار تسقى الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمى عن القوس وجرحت فى ذلك اليوم جرحا شديداً ، وقد امتاز جماعة من الأنصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان النبل يقع فى ظهره وهو منحن على رسول الله حتى كثر فيه النبل ومنهم سعد ابن أبى وقاص وكان راميا ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب بن مالك أحد الأنصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه السلام أن انصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا اليه ونهض معهم نحو الشعب

معه كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح فى هذه الموقعة فلما أسند ظهره إلى الشعب أقبل أبىّ بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش فى عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سببا لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد الذى قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى إلى فم الشعب خرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه . وبينا هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه إذ علت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها بما تجد من عار بدر فاكتفت به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته - بحيث يسمعه من فى الشعب - وقال أنعمت فعال : إن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، أعل هبل ، فقال عليه السلام قم ياعمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لاسواء : قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إلىّ ياعمر ، فقال له الرسول ائته فانظر ماشأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله ياعمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر ثم نادى أبو سفيان إنه كان فى قتلاكم مثل والله مارضيت وماسخطت وماأمرت ومانهيت ، ثم نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد

وكان الذى يهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى موقفه أن يعلم ذات نفس قريش ، أيريدون المدينة أم ينصرفون الى مكة فأرسل على بن أبى طالب فقال اخرج فى أثر القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ ومايريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فانهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم فخرج على فى أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة

فرغ المسلمون إلى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبى سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً إلى المدينة فلقيته فى الطريق حمنة بنت جحش فنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لهـا خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها لبمكان لمـا رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها. ومر بامرأة من بنى دينار من الأنصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت فمـا فعل رسول الله ؟ قالوا خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر إليه ؟ فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة

فى غد ذلك اليوم وهو يوم أحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله أنه يطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا بما هم عليه من التعب والجراح حتى بلغوا حمراء الأسد - وهى من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء وقد مرّ به معبد بن أبى معبد الخزاعى وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ؛ فقال يا محمد : والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الأسد وسار حتى لقى أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ؛ وقد جمعوا الرجعة فإنهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرنّ على بقيتهم فلنفرغنّ منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما ضيعوا فيهم من الحنق عليكم - شىء لم أر مثله قط قال ويحك ما تقول قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

والذى اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حينما يمر بذلك الموقعة فقد كان لهم النصر فى نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ؛ وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ؛ ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا

عن أحد لم يعرجوا على المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ماتكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التى رأوها سائلة فى وادى أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم فى يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أباسفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لاتفعلوا فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا فرجعوا

وعند انصراف الرسول من حمراء الأسد ظفر بأبى عزة الجمحى الذى من عليه بعد بدر ، فقال له أقلنى يامحمد فقال عليه السلام والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين : لايلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بضرب عنقه

والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلا أربعة من المهاجرين وباقيهم من الانصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا

أنزل الله فى هذا اليوم ستين آية من القرآن : فى سورة آل عمران وهى السورة الثالثة من أول قوله تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » إلى قوله فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم

وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجمل تعزية لهم على ماأصابهم يوم أحد (٢) أن صفة الصبر وعلو النفس لايتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم - بألطف إشارة - على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الأسباب الحقيقة لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها فى جيش فقد النظام والروح التى بها يستحق الظفر وهى الفشل والتنازع والعصيان

(٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر

(٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم

(٧) إعلان العفو عن المنهزمين (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما

استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنّ الله غفور حليم)

(٨) الثناء على شهداء الموقعة والإخبار أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثانى يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيما

وقد قيل فى هذه الموقعة كثير من الشعر العربى قالته قريش والمسلمون : نقله ابن هشام فى سيرته

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يارسول الله إن فينا إسلاما فلوأرسلت معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قدغشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل إنا لانريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لانغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعا بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة — حين قدم ليضرب عنقه — أنشدك الله يازيد أتحب أنّ محمداً عندنا الآن فى مكانك يضرب عنقه وأنك فى أهلك قال والله ماأحب أنّ محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى فيقول أبو سفيان مارأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر ابن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامرى فعرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم

ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام إنى أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدى فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبى براء فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم : عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم فى رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين : عمرو بن أمية الضمرى لأنه كان فى الرحال وكعب بن زيد فإنه ترك بالمعركة جريحاً قد ظنّ موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بنى عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبى براء قد كنت لهذا كارها متخوفا ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأدينهما

المحاضرة الرابعة عشرة

إجلاء بنى النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق وقريظة — بنى المصطلق

إجلاء بنى النضير

خرج عليه السلام إلى بنى النضير يستعينهم فى أمر ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم) فمن

رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقى الصخرة كما قال - ورسول الله فى نفر من أصحابه - فجاءه الوحى بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه فى الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافقى أهل المدينة إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضى الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام

ونزل فى أمر بنى النضير من القرآن سورة الحشر وهى السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بنى النضير ثم عين حكم الأموال التى تركوها وسماها فيئا وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله (لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد ، وإنما كان بإذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ما قدمت لغد

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة فى جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بنى محارب وثعلبة من غطفان حتى إذا نزل نخلا لقى بها جمعا عظيما من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضا حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهى موعد أبى سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدراً وأقام ينتظر أبا سفيان أما هذا فإنه خرج بقريش

حتى بلغ مجنة أو عسفان ثم بدا له فقال أيها الناس إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع فارجعوا فرجع الناس ، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبى سفيان لعدم وفائه، ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون

الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بنى النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم جماعة من بنى وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشا ونشطوا لما دعوهم اليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعوهم إلى مثل مادعوا اليه قريشا وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأنّ قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن فى بنى فزارة والحرث بن عوف فى بنى مرة ومسعر بن دخيلة فى بنى أشجع بن أريث

لما سمع رسول الله بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسى وقاسى المسلمون فى حفره متاعب شديدة ومازالوا حتى أحكموه ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بمجمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدوّ وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا فى الآطام

خرج حيي بن أخطب النضيرى حتى أتى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ثم قال - إنى قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى وقد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل

محمداً ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك ياحيي فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتله فى الذروة والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بنى قريظة وكان أمرهم يهمه أكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأنّ هؤلاء فى بلده والخيانة منهم تؤثر كثيرا فى مركز جيشه فلما انتهى السعدان إلى بنى قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ؟ فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين .

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار. ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن الفزارى والحرث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأى فقالا يارسول الله أمراً نحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيساً غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر :

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعى فقال يارسول الله إنى أسلمت ولم يعلم قومى بإسلامى فمرنى بما شئت فقال له عليه السلام : إنما أنت رجل واحد فخذل عنا مااستطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديماً فى الجاهلية فقال يابنى قريظة قدعلمتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم وإن قريشا ليسوا أمثالكم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قدجاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأهلهم ونساؤهم بغيره فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ! قالوا : لقد أشرت بالرأى ، ثم خرج أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب — ومن معه من رجال قريش — قد عرفتم ودى لكم وفراقى لمحمد وإنه قدبلغنى أمر قد رأيت علىّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم . إن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد وقدأرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على مافعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم فإن طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك :

فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من القبيلتين فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً فقالوا لهم : إن غداً السبت ، وهو يوم لانفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لاندفع إليكم أحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظه حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودبّ حينئذ إلى القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح فى ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم فى ذلك الليل فإذا أبو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت له من أنت ؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله إلا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التى علمتهم كيف يخندقون على ديارهم إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة فى ملاقاة الأعداء واضطروا - بحكم ما هم فيه من الشدائد - أن يستعينوا بالخدع التى تفرق بين الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاندوهم من بنى قريظة لا عهد لهم ولا رادع عما استكن فى أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الأحزاب - أن يتوجه المسلمون إلى بنى قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكماً يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله بن أبىّ فى مواليه من قينقاع بإجلائهم فلم يرض

ومن الغريب أن إخوانهم بالشام فى هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا فى الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الأحزاب فى سورة سميت باسمهم وهى السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى

المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان ، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) ثم ذكر أمر بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب فى عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم فى ذراعه فقطع أكحله وقدمات بعد حكمه على بنى قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر

وبعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمى وخالد بن الوليد المخزومى وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فإنه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك

بنى حيان

أقام عليه السلام بالمدينة -- بعد الخندق -- إلى جمادى الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بنى لحيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا فى رءوس الجبال فعاد إلى المدينة

ذى قرد

لم يقم بالمدينة إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن -- فى خيل من غطفان -- على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى فأشرف فى ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد فى أثر القوم وكان راميا جيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الأكوع فإذا انعطفت عليه الخيل انطلق هاربا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فترامت إليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد

ابن زيد وقال له اخرج فى أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون فى أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقى وأقام المسلمون بذى قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبى فى المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للمن على السبى وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم

قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمرا لا يريد حربا وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراه الله فى منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين؛ فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه ؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت معظما له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب !! ثم

بعثوا اليه رسولا آخر من بنى عامر فأخبره عليه السلام بمثل ماأخبر به بديلا ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فإنما أنت أعرابى لاعلم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يامعشر قريش ماعلى هذا حالفنا كم أيصد عن البيت من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له أو لنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه – كف عنا ياحليس حتى نأخذه لأنفسنا مانرضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفى وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يامحمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبدا وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لايحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حربا وقد هال عروة مارآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع إلى قريش وقال لهم يامعشر قريش قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأيت قوما لايسلمونه لشىء أبدا، فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله إلى قريش حتى يبلغهم عنه ماجاء من أجله فقال عمر يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عدوانى لها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الإشاعة رسول الله قال لانبرح حتى

تناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان ـ تحت الشجرة ـ على أن لا يفروا ، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة .

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامرى وقالوا له ائت محمداً فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول فى أمر الصلح واتفقا على قواعده وهى هذه :

(١) أن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب ، السيوف فى القرب بعد أن تخرج منها قريش :

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض :

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه ردّه عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه :

(٤) من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه :

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر فى عهد قريش :

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده قد انفلت إلى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادى يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ولم تكن هناك حيلة إلا أن يرد أبو جندل ـ عملا

بوثيقة الصلح ـ عملا بالآية الكريمة (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) :

كانت حال بعض المسلمين عند ماانتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت ، وقد كانوا لايشكون فى ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التى رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لاتليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله ألست برسول الله ؟ قال بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى :

لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدى وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا إلى هديهم ينحرون ثم حلقوا رؤسهم أنزل الله فى هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سميت فى أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فإن الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التى ما كانت كل هذه الحروب إلا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذى ضحى فى نيل ذلك إنما هو شىء قليل جداً ولكن الناس لايصبرون ـ ثم ذكر فى السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى الحديبية وأبان ماسيعتذرون به ووبخهم على مافعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الأسباب التى من أجلها امتنع الرسول عن الحرب ـ ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شرّ قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاؤا إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لاينسون ماحلّ بهم وبإخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

فخرج فى محرّم السنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف مايخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفى يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول إلى النجاشى عمر بن أمية الضمرى يطالب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشى على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقى من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاؤا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدّوا فى العام الماضى ليقضوا تلك العمرة التى فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل إليها فى ذى القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أنّ أصحاب محمد فى جهد وشدّة ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمرأ أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثا ثم انصرف إلى المدينة فى ذى الحجة

مؤتة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى ، وكان رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فرئيسكم عبدالله بن رواحة ، فخرجوا فى جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام

فبلغ الناس أن هرقل [1] قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين فى معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو ، وهم فى العدد القليل ، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفى ذلك الوقت أظهر مهارته فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا — مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمى بهم فى الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة . وعندنا أن تلك الأعداد التى يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عددا كثيراً أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقى له وثلاثة آلاف عدد قليل جدا فى جانب مائتى ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون إذا عدوا من قتل فى هذه الموقعة لا يزيدون عن اثنى عشر رجلا ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته اليه ضئيلة ثم لا يقتل فى الميدان إلا اثنا عشر نفراً

فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا وبكر دخلت فى عهد قريش وكان بين الحيين فى الجاهلية دماء ، فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بنى بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل ابن معاوية الديلى ورفدتهم قريش بالسلاح ، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا إلى صفوف بنى بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا

---

(١) فى تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ما قيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التى كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار اليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم

فيهم فخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس فى المسجد فأنشده شعرا يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبنى بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهد ، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لابد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فلم ينجح وكان مجيئه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطبا عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدّة من خرج فى هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة : ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمرّ الظهران قريباً من مكة

كانت قريش محسة بأنه لابد من شىء بعد أن فعلت مافعلت ولكن عميت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشىء من مسير المسلمين . وبينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من لقى أباسفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبى سفيان فقال العباس يارسول الله قدأمنته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به فذهب به حتى إذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبى سفيان ويحك ياأباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لاإله إلا الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ماأحلمك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد قال ويحك ياأباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ماأحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإنّ فى النفس منها حتى الآن شيئا ، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يارسول الله إنّ أباسفيان

رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب إلى مكة مسرعا ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لاتستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة الليثي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ماتظنون أنى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال :

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهى فى أعقابه إلى اليوم . ثم دخل البيت فأزال مابه من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر حين - دخوله مكة - بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل فى الإسلام فى هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم إلا القليل ثم أسلموا بعد . يعتبر فتح مكة حدا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين مابعده فإن قريشا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب فى ذلك لهم تبع لخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب

أمر حنين

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النضرى ودخل معها فى ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين ، فلما سمع بهم رسول الله خرج اليهم ومعه اثنا عشر ألفا وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حنين

وشرعوا ينحدرون فيه كانت هوازن وثقيف قد كمنوا فى شعابه فشدوا على المسلمين شدّة رجل واحد قبل أن يهيء هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لايلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا إلى أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل . فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السمرة فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدّة العدوّ قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا أعداءهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وحدهم - نحو السبعين : وحاز المسلمون ما كان مع العدوّ من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله فى هذه الموقعة فى سورة التوبة «لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة ، ثم عادعنهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يارسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فمنّ علينا منّ الله عليك وقال له رجل من هوازن إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شمر الغسانى أوللنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ماقال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار

ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك ردّ عليه السلام إلى هوزان أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فردّ عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة إلى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه فى مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأنّ التأهب لها كان فى زمن عسرة من الناس وشدّة من الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل اذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسره وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله فى سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرّة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محاربا

التشريع فى المدينة

بينا فيما سبق أنّ الذى نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن .

ويمتاز المدنى من القرآن عن المكى منه بأمرين (الأول) مافيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثانى) ماتناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعنى بالدينية ماشرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب فى تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة فى اليوم الذى اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة فى سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف فى حال تقابل الصفوف وقد بينها فى سورة النساء: ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع فى المدينة فى السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك فى سورة البقرة

(٣) الحج شرع فى المدينة فى السنة السادسة وقد بين الحج فى موضعين من سورة البقرة (الأول) فى قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) (الثانى) فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره فى سورة آل عمران من قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)

وقد بين فى سورة الحج المكية شىء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) الآيات

ولم يحج عليه السلام إلا فى السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملا

(٤) الزكاة لم يرد فى تفصيلها فى الكتاب شىء جديد وإنما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها فى سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نجعل فى مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من

العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الأغنياء للفقراء فهى أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاما يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله

ماورد فى الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الأول - مايتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالا شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الأفرنجى ولكننا لا نستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأنّ نظام البيوت ليس بالأمر الشخصى الذى ترجع أوامره ونواهيه إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهى أليق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضى لنا أهل اللغة باسم العائلة وإلا سميناها الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه

الثانى - مايتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث - مايتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج: شرع القرآن الزواج وسمى عقدته (ميثاقا غليظا) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودّة ورحمة) وجعل كلا من الزوجين لباسا للآخر (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) ومعنى هذا أنكم تسكنون إليهنّ ويسكنّ إليكم كما قال جعل لكم الليل لباسا أى تسكنون فيه

(٢) حرّم التزوج بنساء بينهنّ فنهى فى البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى فى سورة النساء عن تزويج نساء بينهنّ من أول قوله تعالى «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» الآيات

وأجاز فى سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ولكنه اشترط لذلك أن لايكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو إذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والأسلوب الذى جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الإنسان إلى التنبه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لايقع فيما نهى عنه الشارع فإنهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم

إن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فكذلك خافوا أن لا تعدلوا فى النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) يعنى إن أمنتم أن تعدلوا فإنه قال بعد (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ومما يلفت النظر أنه قال فى السورة نفسها (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر بإعطاء النساء مهراً عند التزوج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدئ به ولا ينتهى إليه

(٤) العشرة : كثر فى القرآن وصاية الرجل بالمعروف فى معاشرة امرأته (فإمساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهن بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة فى البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً فى الحقوق فإن الكتاب يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدى لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك فى جملة وجيزة هى أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لا تنحل بسبب مايحصل بين الزوجين من النفور فأول الأمر شكك الزوج فى وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأى زوج لا يتأثر مما ذكره الله بشكل توقع فإنه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقا بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكما من أهلها وحكما من أهله للسعى فى التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحا فقال (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما)

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وشرع فى

الكتاب نظاما للطلاق لو اتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هي لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الانسان بعدهما بين الامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأنّ ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الأول أنّ في إمكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدّة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة زوجته بإحسان (وبعولتهن أحق بردّهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا) وحتم أنّ هذه المدّة تقيمها المرأة في بيتها الذى كانت تعيش فيه مع زوجها لاتخرج ولاتخرج إلا إن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة . اقرؤا إن شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) ثم قال (فإذا بلغن أجلهنّ فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله)

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر المرأة إذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقال (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وقال «فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» وقال «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا»

فلا نرى الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام

«٥» فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد أن كانت العرب لاتورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون

وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) ثم بين تلك الأنصباء بيانا تاما فى سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وبين الوقت الذى يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين فى أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا التصرف فى أموالهم

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلى قوى فالذين يقولون ليس فى الإسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جدا عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب

المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات ـ الحدود ـ الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات فى مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاما بالوفاء بالعقود وهى كلمة تشمل جميع الالتزامات التى يلتزمها الإنسان للإنسان

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ترونه فى سورة البقرة

(٤) بين شكل التعامل فى أطول آية من القرآن وهى آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما فى الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من اؤتمن أن يؤدى أمانته

هذه هى الأصول العامة التى اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها فى سورة النور فى موضعين (الأول) (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وما تكتمون) (الثانى) فى آخر السورة حيث يقول (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) إلى آخر الآيتين

(٢) نهى النساء عن أن يبدين زينتهنّ إلا ماظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهنّ أن يضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ وقد أباح إبداء الزينة بحضر أقارب لهنّ سماهم فى سورة النور وأمرهنّ فى الأحزاب بإدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتى لايتعرض لهنّ أحد فى طريقهنّ كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر فى التحية أن يحيا الإنسان بأحسن تحية أو بمثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التى بها يتم تعاطفهم وإلفهم

الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، وأثبت فى سورة الإسراء أنّ من قتل مظلوما قدجعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف فى القتل وكان ولى الدم عند العرب أقرب عاصب الإنسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذى صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأنّ العصبية العربية لم يعد لها أثر) وبين فى البقرة أن كتب القصاص فى القتلى وأنّ القصاص لاينبغى أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولاينبغى أن يتجاوز ذلك إلى ساداته والأنثى بالأنثى ولاينبغى أن يتجاوز ذلك إلى رجالها أوعصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق فى القصاص وهو الولى وذكر الكتاب أنّ من الشرائع التى كتبها على قوم موسى القصاص فقال « وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسن والجروح قصاص »

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة «الأول» حدّ الزانى وقد جعله الكتاب مائة جلدة «الثانى» حدّ القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدّان فى سورة النور «الثالث» حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد «الرابع» حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الأرض، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير. ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فإنّ الكتاب قال (فإن تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أنّ الله غفور رحيم) وهذان الحدّان فى المائدة

هذه جملة صغيرة من النظام الذى شرعه الله فى هذا الدين ليكون أساسا لأعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا إليه

الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا فى دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالأنصار وكان الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه إلا أنهم كانوا فى الظاهر مشاركين المسلمين فى الإسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين، ويظهر لى أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإنى لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الإسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى أنه لما مات عبدالله بن أبىّ بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه فى قميصه ونزل فى قبره مع أنه كان سببا عظيما فى مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف قلوب القوم ويودّ لو يكون باطنهم كظاهرهم لأنّ فى هذه قوة كبرى

ودخل فى الإسلام قليل من يهود المدينة كعبدالله بن سلام ومن سار على رأيه: كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينهى الحال مع قريش، ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالا فإن انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون فى الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجها لوجه كل ذلك

كان مما يجعل الدعوة فى سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن فى الدين الإسلامى فكان ذلك سببا مهما من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك مايعارض هذا الأثر . حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش فى الإسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فإن الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم فى نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذى يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجا قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فممن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الإسلام عمّ من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الإسلام وفى مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة فى ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم وأشياء أعطاهم إياها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لا خير فى دين لا صلاة فيه وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص منهم وكان أحدثهم سناً لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله يا عثمان تجاوز فى الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاما

وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والأقرع ابن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنوه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى فى خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء دينيا ثم قام شاعرهم فألقى كلمة يفتخر - وأولها

نحن الكرام فلا حى يعادلنا　　منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ماقال حسان وأولها

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليه السلام

وممن وفد من قيس : بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم قال والله لقد كنت آليت أن لاأنتهى حتى تتبع العرب عقبى أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ؟ ثم سار اليه مضمرا غدرا فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بنى سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال عليه السلام أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال ياابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسئلة فلاتجدن علىّ فى نفسك قال لاأجد فى نفسى فسل عما بدالك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك الينا رسولا ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها حتى إذا فرغ قال فإنى أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب مانهيتنى عنه ثم لاأزيد ولاأنقص ؛ ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما بعد أن علمهم الإسلام وشرائعه

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلى وكان نصرانيا فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالإسلام

وممن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة ، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذى لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلمة وادعى النبوة وصار يسجع لهم أسجاعا يحاكى بها القرآن

وممن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام فى زيد ماذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيدا وأرضين معه ، ثم وفد عليه من طيء عدى بن حاتم الطائى فأسلم وحسن إسلامه والسبب فى وفادته أخته

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير بإسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ومغافر وهمدان وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب إليهم الرسول عليه السلام كتابا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه يفقهون الناس فى الدين

وممن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامى وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربى أعظمى ومقامى

ثم قدم عليه وفد بنو الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامى وافداً عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المعشار المكنى بأبى ثور

وهكذا دخل الناس فى الدين أفواجا حتى كان رسول الله فى حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين فى حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه فى هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة إلا أنه لا يمكننا القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لانه كان فى وسطهم كثير من الاعراب الجفاة الذين أسلموا تبعا لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الاسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة «الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم» (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أثنى على آخرين منهم فقال «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إنّ الله غفور رحيم»

أما الحاضرون منهم في المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعاته إلى الملوك ورؤساء الأمم إلى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة أن الدعوة في تلك الأزمنة وتلك الحكومات لابد أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لأنهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريته إذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وأرسلهم إلى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولا إلى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك)

وننقل هنا ما رواه ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب قال كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لا نجد أمنا فخرجت في نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم . وكانوا قد استلبوه إياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشي على قدميه متشكراً لله حين ردّ عليه ما ورد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأشراف الروم أصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه إلى السماء فقال له بطارقته والله لقد أصبحت أيها

الملك الغداة مهموما قال أجل رأيت فى هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر قالوا له أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا يهود وهم فى سلطانك وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذى كان ببلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جردوه فإذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذى رأيت لا ما تقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لى الشام ظهراً وبطنا حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال أنتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحما قال أبو سفيان أنا فقال ادنه ادنه فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ثم قال إنى سأسأله فإن كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا على ولكنى كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عنى فلم أكذبه فقال أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره أقول له أيها الملك ما يهمك من أمره إن شأنه دون ما يبلغك فجعل لا يلتفت إلى ذلك ثم قال أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطنا نسبا قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فأخبرنى عن أتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منه أحد قال فأخبرنى عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه قلت ما تبعه رجل ففارقه قال فأخبرنى كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئاً مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها قلت لا ونحن منه فى هدنة ولا نأمن

غدره فوالله ماالتفت إليها منى ثم كرّ على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبى إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا فلئن كنت صدقتنى ليغلبنى على ما تحت قدمىّ هاتين ولوددت انى عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدىّ على الأخرى وأقول أى عباد الله لقد أمر أمر ابن أبى كبشة أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام. وقدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجم لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم فى اتباعه فأظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال إنما قلت ماقلت لأختبر صلابتكم فى دينكم ومن هنا نفهم السبب فى احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجىء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة. كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث ابن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق وكتب إليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بى إنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكى منى أنا سائر إليه ولم يسلم

وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجرى الحبشة ففعل النجاشى ماطلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلى الإسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة

وبعث عبدالله بن حذافة السهمى إلى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه

وسلم قال مزق الله ملكه ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به فاختار باذان رجلين من عنده بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبى صلى الله عليه وسلم قال أحدهما إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنى إليك لتنطلق معى وقالا قولا تهديديا فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحى فأخبرهما بذلك فقالا هل تدرى ما تقول إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه فى كتابه انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سببا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء

وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذى بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التى بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى وبعث العلاء ابن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سبباً فى إجابة بعض وشاغلا لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفى غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات

المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته ــ ختام القرآن ــ الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً فى نجاح الدعوة الاسلامية على يدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لايحتاج إلى دليل على صدقه فوق ماهو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة ــ حينما أخبرها بأمره أول مرة ــ ما كان الله ليخزيك أبداً إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الأخلاق الفاضلة فى الداعى ملاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فإنه يستحيل أن ينال بالشدة قلب ، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل الينا

النظافة الظاهرة ــ مما يروى عنه عليه السلام : بنى الدين على النظافة ، وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر فى طريق فيتبعه احد إلا عرف أنه سالكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها

العقل والذكاء ــ لامرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصه فضلا عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج - بعد معونة الله وتوفيقه - إلى أكمل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول - كان عليه السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لايجهل ، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها

ويحاورها بلشتها ليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد كـكلامه مع ذى المشعار الهمذانى وطهفة النهدى وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين فى المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله (لاخير فى صحبة من لايرى لك ماترى له ـ الناس معادن ـ ماهلك امرؤ عرف قدره المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم ـ رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنـكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ـ ذو الوجهين لايكون وجيها عند الله ـ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ـ الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير . قال له أصحابه يوما مارأينا الذى هو أفصح منك قال وما يمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيدأنى من قريش ونشأت فى بنى سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى والحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحى معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله . كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً قالت عائشة ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثمـا فإن كان إثمـا كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا إن انتهك حرمة الله فينتقم لله بهـا . ولمـا حصل له بأحد ماحصل قيل له لو دعوت عليهم فقال إنى لم أبعث لعانا ولـكنى داعياً ورحمة اللهمّ اهد قومى فإنهم لايعلمون. فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولمـا قال له الرجل اعدل فإن هذه قسمة ماأريد بها وجه الله لم يزده فى جوابه أن بين له ماجهله ووعظ نفسه وذكرها بمـا قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل ونهى من أراد من أصحابه قتله. لم يؤاخذ عبدالله بن أبىّ وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم

فى جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتى عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم مازاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا

الجود والكرم — كان عليه السلام فى هذا الخلق لا يبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه . قال جابر : ما سئل عليه السلام عن شىء فقال لا . وقال ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وأجود مايكون فى شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة . وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى فاقة وأعطى غير واحد مئة من الإبل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما ردّ سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ فإذا جاء ناشىء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبى ذلك فقال رجل من الأنصار يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر فى وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة — كان عليه السلام منهما بالمكان الذى لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفرّ عنه الكماة والأبطال غير مرّة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرّة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرّون عنه وهو يقول أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب : فما رؤى أحد يومئذ كان أشدّ منه وكان إذا غضب لا يغضب إلا لله ولم يقم لغضبه شىء وقال على كنا إذا حمى البأس واحمرّت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف فى عنقه وهو يقول لن تراعوا

الحياء والإغضاء — كان عليه السلام أشدّ الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد كان عليه السلام أشدّ حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئا عرفناه

فى وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لايشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله . وروى أنه كان من حيائه لايثبت بصره فى وجه أحد وأنه يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره .

حسن العشرة والأدب وبسط الخلق مع أصناف الخلق ـ قال على فى وصفه : كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد ياقيس اصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه السلام اركب فأبيت فقال إما أن تركب وإما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لايشتهى ولا يؤنس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ! وماقال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولايقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام ويروى أنه كان لايجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن أو يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة ـ وصفه الكتاب بذلك (لقدجاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) . روى أنّ أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت إليك ياأعرابى قال الأعرابى لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ثم قال أحسنت إليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبى صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدىّ حتى يذهب مافى صدورهم عليك فلما كان العشى جاء فقال عليه السلام إنّ هـذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أ كذلك ؟ قال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لايبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبى فيتجوّز فى صلاته

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم ـ قال عبدالله بن أبى الحمساء بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو فى مكانه فقال يافتى لقد شققت علىّ أناههنا منذ ثلاث أنتظرك . وقال أنس كان عليه السلام إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وكان يصل ذو رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال إنّ آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء غير أنّ لهم رحماً ماسة سأبلها ببلالها ولما قدم وفد النجاشى قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم . وكان يبعث إلى ثويبة مولاة أبى لهب مرضعته بصلة وكسوة فلماماتت سأل هل بقى من قرابتها أحد فقيل لاأحد

التواضع — كان عليه السلام أشد الناس تواضعا وأقلهم كبراً ، عن أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا له فقال لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب وحج على رث وعليه قطيفة لاتساوى أربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجا لارياء فيه ولاسمعة . هذا وقد أهدى فى حجه ذلك مائة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد تمس قادمته تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لاتفضلونى على يونس بن متى ولاتفضلوا بين الأنبياء ولاتخيرونى على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة — كان عليه السلام آمن الناس وأعدلهم وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الأمين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية قبل الإسلام وروى عن على أن أبا جهل قال له إنا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت به وفى ذلك قال الكتاب (فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ! لاوالله ماهو بساحر . وفى حديث على فى وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايأخذ أحداً ولايقرف أحداً ولايصدق أحداً على أحد أى لايسمع وشاية الواشين

وقال خارجة بن يزيد كان النبى صلى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه لايكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لايتكلم فى غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لافضول ولاتقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لاترفع فيه الأصوات ولاتؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطباً له (وإنك لعلى خلق عظيم) . وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس وحببه إلى القلوب والان من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون فى دين الله أفواجا مناصرين موازين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلا عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

البيت النبوى

كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهى أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها فى حياتها ، وقد كان له منها أبناء وبنات فأما الأبناء فلم يعش منهم أحد فإنهم توفوا بمكة وهم القاسم الذى كان يكنى به عليه السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر . وأما البنات فكن أربعاً زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة - فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هى بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا فلما رأى الرسول القلادة : رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبى العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلا مأمونا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد إلى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلما فرد النبى صلى الله عليه وسلم إليه زوجه زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها على بن أبى طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة

ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع

زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعدأن نذكرهنّ

كان عدد من عقد عليهنّ ثلاث عشرة امرأة منهنّ تسع مات عنهنّ واثنتان توفيتا فى حياته إحداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما وهاهى أسماؤهنّ

(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بنى عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبى بكر الصديق وكانت بكراً ويقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبنى عليها بعد الهجرة وهى بنت ثمان أو تسع وفى النفس شىء من تقدير هذه السن .

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمى

(٤) أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة من بنى مخزوم وكانت قبله عند عبدالله بن جحش

(٥) وهؤلاء الخمس كلهنّ من قريش يضاف إليهنّ خديجة فتكون القرشيات ستاً من هذه البطون ـ عبد مناف ـ أسد بن عبد العزى ـ مخزوم بن يقظة ـ تيم بن مرّة ـ عدى بن كعب ـ عامر بن لؤى

(٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفاء بنى أمية وهى بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذى كان معتبراً ابناً للنبى صلى الله عليه وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبنى فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس أنه لم يعد للتبنى حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه لأنّ عمله هذا يخالف ما أطبقت عليه عامّة العرب فأخفى فى نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك فى الخطاب نوع شدّة (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وكان أمر الله مفعولا) فبينت الآية أنه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتدّ بينهما فأحب أن يفارقها ـ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوّجها بعد أن يطلقها زيد وهذا هو الذى أبدته الآية ـ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ـ تخشى الناس أن يعيروك فيقولون تزوّج زوج ابنه ـ ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً

زوجنا كها وبين العلة فى ذلك بما ذكر بعد . ولقد هدم قاعدة التبنى قولا كما هدمها فعلا فقال (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) وقال (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهى التى عتق بسبب زواجها من كان أسر أو سبى من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبى رهم بن عبدالعزى من بنى عامر بن لؤى

(٩) صفية بنت حيى بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن أبى الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتى توفى عنهن

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عبدمناف وهذه توفيت فى حياته

هؤلاء إحدى عشر سيدة تزوج بهن الرسول وبنى بهن منهن ست من قريش وخمس من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بهن . وتسرى بمارية القبطية التى أهداها له المقوقس فأولدها ابنه ابراهيم الذى توفى صغيراً بالمدينة فى حياة أبيه وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال (وأزواجه أمهاتهم)

يظهر لنا أنه كان للنبى صلى الله عليه وسلم رأى فى أن يجمع فى نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فإن الصهر كان عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعد له ومبعداً له أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبنى إسرائيل وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما فى جويرية وزينب وصفية

وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله المنزلية للناس خصوصا من طالت حياته منهن كعائشة فإنها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجدون فى سورة الأحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)

ختام القرآن

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى فى يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع فى مصحف واحد فى حياته وقد تم ذلك فى خلافة أبى بكر (راجع خطابنا الذى ألقيناه بنادى العلوم فى سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادى فى تلك السنة)

الوفاة

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يتمرض فى بيت عائشة فأذن له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الانصار على هيئتها لاتزيد وانهم كانوا عيبتى التى أويت اليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فصلى بهم مدة مرضه

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبوبكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت ثم تلا هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وحينذاك خرج أصحابه إلى سقيفة بنى ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع أبوبكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل فى قميصه وكفن فى ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً دخل الرجال أولا ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له لحد فى الموضع الذى مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التى كانت فى الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها

وكانت سنه عليه السلام ثلاثا وستين سنة قمرية

المحاضرة الثامنة عشر

- الخلافة -

الخـــلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لأمته (الأولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماما المسلمين تجتمع إليه كلمتهم يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر وإليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ماأراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هى التى اختصصنا بها محاضرتنا هذه

لم ير المسلمون بدأ من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلافة المسلمين: ولم يوجد بين هذه الأمة شىء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ماكان منها فى الخلافة ومدار البحث كان فى أمرين (الأول) البيت الذى يكون منه الخليفة (الثانى) الشكل الذى به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبى صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الأولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشى على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بنى عمه علىّ وعقيل ابنا أبى طالب ويمتاز على من بينهم

بسبقه إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث

رأى عدم التخصيص كان للأنصار فإنهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التى قاموا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأى من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وليس من قريش وإنما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين فى ذلك إلى بيت أو قبيلة بل إلى ما فى الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون فى رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن وهى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأى التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأيا للجمهور لما رواه لهم أبوبكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبوبكر طرفا من علة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحىّ من قريش . ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون إستنتاجه أن السر فى تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هى العصبية التى بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة

ورأى التخصص بالقرابة القريبة كان لعلىّ بن أبى طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك فى حديث مع أبى بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذى رآه لنفسه أذعن لرأى الجمهور

مكث الرأى الأوسط سائداً والأخير خامداً لايجد له محركا حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الإسلاميه دعاة له ينبهون الناس إليه ويقبحون من خالفه إذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الإحساس فسرعان ماتنبه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب فى سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هـذا فلم يصف الأمر للخليفة الرابع على بن أبى طالب لأنه قام فى وجهه نصف الأمة قادما إليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التى قصد منها إقرار الأمر فى نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة وإحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبى سفيان بالخلافة وهو من بنى أمية وليس من بنى هاشم

عادت فكرة الشيعة إلى الخمود ولكن السيوف وإن تكن تغلبت فى الظاهر عليها فقد استكنت فى النفوس تهيج وقتاً إذا لاح لها بارق الأمل وتكمن حينا انتظاراً للمستقبل

مازال أبناء علىّ يرون هـذا الحق لهم إرثا لاينازعهم فيه إلا ظالم وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلا وتمثيلا إلا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججا والقلوب تأثراً لأنه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان أكثر مايقولونه من الشعر المأثور فى تمثيل الحسين معفراً بدمائه بكربلاء بعد أن أذيق من العطاش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بنى أمية حتى ينقاد الناس إلى من يدعوهم للقيام إلى رد الحق لأهله

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بنى على وبنى العباس فى استحقاق الخلافة بل كان بنو على يرون الحق لهم خالصا لما لأبيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بنى العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علىّ لأن الأول عم والثانى ابن عم فاشتغلوا فى الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سراً فى دولة بنى أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراسانى فتمم لهم الأمر ورد اليهم الخلافة بعد أن أسقط بنى أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا

من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها إلى على وأهل بيتـــه أكثر من توجهها إلى بنى العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم عبدالله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوى والعباسى ، فكان نصيب آل على فى خلافة بنى هاشم أشد وأقسى مما لاقوه فى عهد خصومهم من بنى أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد ، وخصوصا فى زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بنى العباس وكان اتهام شخص فى هذه الدولة بالميل إلى واحد من بنى على كافيا لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق على وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بنى العباس كما كانوا يخرجون على بنى أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقى منهم بالشرق سكت على ما فى نفسه

ذهب الفاروق إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولا علوية لها ذكر فى التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتى ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل اليهم فى السر حتى كان شيء من ذلك فيما يقال سببا من أسباب سقوط الدولة العباسية فإن ابن العلقمى وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء التتر إلى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك فى الممالك الاسلامية ـ لمصر وملوكها فساعدوا على إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد اليهم حتى يكون سلطانهم مقبولا لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف فى البيت الذى يكون منه خليفة المسلمين شكل الانتخاب لم يرد فى الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد فى السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا

الأمر المسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما . ولننظر ما صار عليه المسلمون في ذلك وها هي طرائقهم

(١) الطريقة الأولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الأمر ثم انتخبوا أبا بكر - بعد حوار وجدال - ولكن انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج إلى السرعة في البت حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطالع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق إلى الإسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فضلا عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابة عنه في وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهي الأمر بسرعة فمد يده إلى أبي بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال عن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلانا : مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البينة التي لها الحق في انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية : أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده الخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية في انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرى أنه لا يتطالع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاما ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأي المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها

وإلا اعتبر خارجا يستحق القتل وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذى فيه عبد الرحمن ابن عوف مرجحاً

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نر فى مستقبل الأمة من تناولها فضلا عن أن يحسن فيها : لا ينكر أنها طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن للقصد منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتى لا يجد محبوا الخلافة مجالا للخلاف ويظهر لنا أنّ عمر كان محساً بأنّ كلا منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم عهده ويظن أنّ هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر فى ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التى سبق ذكرها

لم يكن فى طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لذلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترما أهم الأمة بأسرها ؟ أم هم أفراد مخصصون ؟ ! وإن كانوا مخصصين فمن هم ؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد ، ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أهم ولاة الأمصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة ؟ كل ذلك لم يبين فالمتطلع للخلافة يجد مجالا واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف علىّ .

والطريقة الثانية وهى طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن فى بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل فى انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز والطريقة الثالثة - فى حقيقة الأمر - كالثانية إذا اقتصر فيها على الشكل الذى رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام لذلك لما جاء دور علىّ قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ فى ذلك رأى غيرهم من المسلمين فى الحواضر الإسلامية كان أهل المدينة - وحدهم - هم الذين ينتهى إليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد فى الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى : كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أهلا معاوية بن أبى سفيان فقام بأهل الشام معلنا أنه مخالف لأن بيعة علىّ ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين

الطرفين فى سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا إلى شىء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى فى صاحبه وأريد منهما أن يحكما فى أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصرا فى البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث فى خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شىء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للمتنازعين خصما ثالثا قوى الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لا حكم إلا لله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغى له أن يكون فى شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس فى أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح فى نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطوها الحق فى أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخالفيهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضعوا لأمرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة لا لأنفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة انتهى أمر على واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفى نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص فى الشكل عن بيعة علىّ بقطع النظر عن التعرض لما فى كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضرورى أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة فى الشريعة يقال أنّ أحدهما تعداها إلا إن سرنا على رأى من يقول إنّ علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه فى ولاية العهد على أنّ الخليفة هو الذى يعينه كما هى طريقة أبى بكر فى عهده لعمر إلا أن بينهما فرقا وهو أن أبابكر اختار رجلا ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا فى الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد إلى ولده يزيد لكنه امتاز

فى عهده بأن طلب من ولاة الامصار أن يوفدوا إليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة إلا من لهم هوى فى بقاء الأمر فى عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الأمر، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد إلا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد، من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لإرادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التى حصلت فى عهد يزيد من خروج الحسين بن على وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية إلا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك للعبء فى وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبل الأمة على غاربها وفى تلك الظروف كانت الفتن تموج موجا حتى استقر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية الذى عهد بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو أحدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهى أول مرة ولى العهد فيها اثنان [1]

---

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولى فيها اثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزع ثانيهما إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الأمور لنفسه ولا يكون ذلك إلا باهلاك الأول وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذى جعل ولى عهد له فيجتهد فى نزعه وإقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولى ابنه الوليد. وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا أن عوجل لأخرجها عنه بل عن بنى أمية جميعا وولى يزيد أخاه هشاما ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصاً على الوليد حتى ساءت أخلاقه وولى السفاح عهده أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى بن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى أخره وقدم المهدى. وولى المهدى ابنيه الهادى ثم الرشيد فحاول الهادى أن يخلع الرشيد لولا أنه عوجل وولى الرشيد بنيه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى إلى قتل الأمين ومن الغريب أن اللاحق لا يتعلم مما أصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة فى بنى أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت خلافة بنى العباس فسارت على هـذا النمط إلا أنه فى عهد الضعف الذى استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير إلى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم الخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعاً بعدأن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغـيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم فى مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بنى العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثمانى وأخضع لسلطانه كثيرا من الأمم الإسلامية التى كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره فى عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهـذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها فى شكل الاختيار وهى أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت ومع هـذا لم يخل الأمر من طموح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك فى بيتهم أكثر مما حفظه فى أى بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوى فإنه كان منظورا فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقتها الفرقة الاثنا عشرية فى بنى الحسين بن على وسموا عليا ومن يليه الأئمة وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدى المنتظر الذى اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى فى سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التى جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقا

لم يكن يحل الخلاف فى زمن من الأزمان إلا بالقوة فهى التى تجعل صاحبها صاحب الحق ظافرا ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعى فى جمع الكلمة على قانون يتبع فى انتخاب الخلفاء وهى نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين

تناول العلماء فى الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل الينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإنّ الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليه المتكلمين وصار أمرها موضوعا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الإمام أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من طريقهما معا كما هو رأى بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية ؟ أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأى الإسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الأمن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الغوطى وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة (٢) شروط الإمام وقد عدّوا منها شروطا لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ما تثبت به الإمامة وهو النص من رسول الله أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافا للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفى الواحد والاثنان وقال بعضهم لا بدّ أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولأى شيء يكون ذلك ؟

(٤) من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم على ؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(٦) ما حكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الأحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية لأنّ هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم

والخلاصة : أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن فى طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ما هى عليه من غير حل محدد ترضاه الأمة وتدفع عنه ، سببا لأكثر الحوادث التى أصابت المسلمين وأوجدت ما سيرد عليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

المحاضرة التاسعة عشر

انتخاب ابى بكر — أول خطاب له — ترجمته — أخلاق أبى بكر — أخبار الردة

انتخاب أبى بكر

كانت الأنصار منقسمة إلى شعبتين الأوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلى سوق المدينة وعندها سقيفة وهى ظلة كانت بالقرب من داره فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الأنصار فى تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجها إلى اختيار سعد بن عبادة فإن سعداً خطب فيهم مبينا ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينبغى أن ينازعهم فى هذا الأمر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن.

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا اليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه ليقوله فى هذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك وكان أبو بكر رجلا وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب فى سبيل دينهم ثم كر على ذكر الأنصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله (الأئمة من قريش) ثم قال فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور ، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم بن الخزرج فقال يامعشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم وظلكم ولن يجترئ مجترئ على أخلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون.

ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال أنا جذيلها (١) المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال أبو عبيدة يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقام بشير بن سعد وهو من بنى زيد بن مالك من الخزرج فقال يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا عرضا فإن الله ولى المنة علينا بذلك ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبسط يدك لنبايعك فمد عمر يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عققت أنفست على ابن عمك الامارة ؟ قال لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما تطالب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤن سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على ابن أبى طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين فى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبى بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحتك به والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد إليه

كلهم إذ ذاك فى المدينة ، ولم يزل على بن أبى طالب ممتنعاً عن مبايعة أبى بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكروجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبى بكر والله لاتدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بى ؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وماأعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتى وبعد أن أتم كلامه قال على لأبى بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر به ثم استغفر على وتشهد فعظم شأن أبى بكر وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر ولا إنكاراً للذى فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا فى الأمر نصيباً فاستبد به فوجدنا فى أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى على قريباً حينما راجع الأمر بالمعروف

أول خطاب لأبى بكر

بعد أن تمت بيعته قام فى الناس خطيباً [١] فقال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن صدفت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لايدع أحدمنكم الجهاد فإنه لايدعه قوم إلاضربهم الله بالذل أطيعونى ماأطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلاطاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . وهذه الكلمة هى مجمل الطريقة التى اتبعها فى خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفى هذا ضمان لحريتهم فى القول أعطاهم عهداً أن يعد فيهم فلاتمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولايمنعه

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبى بكر يظهرون بها مالأنفسهم من الخطة التى سيتبعونها فى سياسة أمتهم إجمالا

ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه ـ حثهم على الجهاد الذى كان لابد منه ـ أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلاطاعة له عليهم

ترجمة أبى بكر

هو أبو بكر بن أبى قحافة من بنى تيم بن مرّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرّة ولد لسنتين من عام الفيل وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم مالايعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر وكان له فى الهجرة إلى الإسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتدّ إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لايستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بدّاً من أن يتخلص من هذا الشرط ردّ على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه مايصيب إخوانه : ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثانى اثنين إذهما فى الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية فى غزوة تبوك وأمره النبى صلى الله عليه وسلم على الحج فى السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه فى الصلاة

تزوّج أبو بكر فى الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤى فولدت له عبد الله وأسماء التى تزوّجها الزبير بن العوّام ـ وتزوّج فى الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بنى غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التى تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وتزوّج فى الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبى طالب فولدت له محمداً ـ وتزوّج فى الإسلام أيضاً حبيبة بنت خارجة ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم ـ فذكور أولاده ثلاثة وإناثهم ثلاث

أخلاق أبى بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها فى أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما

ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبى بكر فإنا نجد أظهر أخلاقه

صدق العزيمة . الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان فى الأمر على قدر مايتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره إن كان شوريا فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لايثنيه شىء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقا : هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر فى سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان متردداً فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ماظهر من صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ، هيأ بعثا ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه فى مؤتة وكان فى هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الاعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الأمر أواخر البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ماأمر به الرسول أمراً حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم تكلم فى أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضبا شديداً وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر ؟ ! ! واشتد فى الكلام مع عمر الذى كان يكلمه فى ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضرورى وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بابقائه بل قال لأسامة إن

رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له . وهذا مقام كبير فى احترام ذى السلطان فى سلطانه وفى الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوى حيث رغب أبوبكر أن ينفذ تماما واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغى له أن يفتات عليه . ولما ودع أبوبكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهى :

لاتخونوا ولاتغلوا ولاتغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا طفلا صغيراً ولاشيخا كبيراً ولاامرأة ولاتغدروا ولاتعقروا نخلا ولاتحرقوه ولاتقطعوا شجرة مثمرة ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيراً إلا لأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا يدفعها باسم الله [1]

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوما ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لولم يكن للقوم قوة ماأرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية !

ومما يظهر صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى أخبار الردة

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله فى سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) فهذه

---

(١) فى لسان العرب . وفى الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة ـ وستجدون آخرين . للشيطان فى رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف أى أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا انسانا بشدة الغى والانهماك فى الشر قالوا قد فرخ الشيطان فى رأسه وعشش . وفى حديث أبى بكر وستجد قوما فحصوا عن أوساط رؤوسهم الشعر فاضرب مافحصوا عنه بالسيف وفى الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهى مجاثمها

كانت حالهم خضوع فى الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الاسلامية خصوصا ما كان منها فى المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدعون إلى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين :

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) وفريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبى بكر صادقة فى حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع مايعلمه من هذا الانتقاض الذى كاد يكون فى عامة الاعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شىء .

فلما جاءته الاخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون : ننشدك الله ياخليفة رسول الله أن لاتعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب بعثت آخر فقال : والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى فخرج فى تعبيته حتى نزل على أهل الربذة فالابرق فاقتتل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياما ، وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعى سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذى القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الالوية عقد فى ذلك اليوم أحد عشر لواءاً لأحد عشر أميراً وهم :

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة (٣) ووجه فى أثره شرحبيل بن حسنة (٤) المهاجر بن أبى أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسى بصنعاء ومعاونة الأبناء (٥) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان (٦) عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فى عمله (٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن

(٧) العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة (١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتابا واحداً (منشوراً) أرسله اليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال : (وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وانى قد بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لايقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الاذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغى ، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم .

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتق الله مااستطاع فى أمر كله سره وعلانيته وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذى لهم لاينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من

كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لايقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ماأفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لايدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لايكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول طليحة ومالك بن نويرة.

كان طليحة رجلا من بنى أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للناس النبوة ليكون له من الشأن مارأى لبنى قريش فدعا إلى ذلك قومه من بنى أسد فشايعوه والتفت إليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت فى غمارهم غطفان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيء بارض نجد. وكان بالمدينة عدى بن حاتم الطائى وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبى بكر أن يذهب إلى قومه فاذن له فقدم عليهم فصار يفتلهم فى الذروة، والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم أو ارتهنهم فاستقبل عدى خالداً وقال له أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك ٥٠٠ مقاتل تضرب بهم عدوك: ففعل خالد، ثم عاد عدى إلى قومه، وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم، ثم راجعوا الإسلام، فعاد إلى خالد وأخبره، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتى بزاخة، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس عيينة بن حصن الفزارى بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له: ألا ترى مايصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشيء قال نعم قد جاءنى وقال إن لك يوما ستلقاه ليس لك أوله ولك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لاتنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لاتنساه يابنى فزارة هذا كذاب وولى عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلما فقال له عمر أنت الكاذب على الله حين

زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياما فإن الرغوة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على بعضه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبى بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد فى الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبيناهم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هى وأبوها فى بنى تغلب وأصلها من بنى يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبى بكر فلما قربت من ديار بنى تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بنى يربوع ودعته إلى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبى بكر وحملها أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع ابن مالك سيد بنى مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يبدؤن فسجعت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوب فى بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بنى تميم وعولت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفى فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبيناهم على ذلك إذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد فى جيوشه فتفرقت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على مافعل وتحير فى أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندما ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك فى نفر من بنى يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر إن فى سيف خالد

رهقاً فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه فى ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكا وبخذلان بنى يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها إلى أبى بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلمة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول فى حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنى حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوما لا يعدلون، فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بنى حنيفة باليمامة ووجه فى أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجها آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفاً لأن أكثرها اتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالا شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا فى الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة واشترك فى قتله وحشى قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم مجاعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبى فاتفقا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل مقاتلهم لجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح فوفى لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالإسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبى بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ما هذا الذى استنزل منكم ما استنزل قالوا يا خليفة رسول الله لقد كان الذى بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم

سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم : وأقام خالد بعد فراغ الأمر فى واد من أودية اليمامة يقال له الوبر

اليمن والأسود العنسى

ولما أسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باذان الذى كان عاملا لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياعلى صنعاء وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً يتنقل فى هذه الولايات قبل وفاة الرسول . ثم قام رجلا من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهراً واستولى عليها وهزم الأبناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن فى أمره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام كتابا على يد وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل فى أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وإن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينا . وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس ابن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً ففاتحه الأبناء فى أمر اغتيال الأسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التى اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلى بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من رؤس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات وما

زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معديكرب ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبي بكر يبشرونه بالفتح

البحرين والحطم

كان عليه السلام قد ولى على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر فى الشهر الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإنها فاءت إلى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يامعشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى إن علمتم وما تجيبونى إن لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فإن محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم . أما بكر فإنها تمت على ردتها يقودها إلى ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمى أميراً على الجند الذى سيره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال فى مسلمة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الإسلام بجرانه فى البحرين وكتب العلاء إلى أبى بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الإسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب فى غير هذه الجهات فى جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر فى أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا تزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظنك بهذه النار التى هاجت فى جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليد عجاجتها قبل أن تنقضى السنة التى لحق فيها الرسول بربه وأن الإنسان ليحار بادئ بدء فى هذا الأمر ولكن إذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام فى تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند

وإليهم فى مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبى بكر أن له نفساهى أكبر نفس عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض فى جند خالد بن الوليد فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلى أبى بكر يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضبا شديداً ولم يكن هناك هوادة فى رجوعه إلى خالد ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لأى سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته وحاول عمر أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبه فلم يفعل لأنه خاف الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إنا نقول فى ذلك قولا صريحا لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذى عرف . حصل ذلك فى وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقواهم شكيمة وأشدهم قلبا

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لأول عهد أبى بكر — غزوة الفرس — غزوة الروم

ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهى محصورة فى جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قواهم متفانية فى حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم فى أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكون منهم تلك الأمة العظيمة التى سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من قديم الأعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فأمّا دولة الفرس ويقال لها دولة الأكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهى مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقى والغربى جنوبى بغداد فى منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الأكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن بابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالأمر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعدأن كانت تفرقت فىعهد اسكندرالمقدونى وكان ظهورأزدشيرسنة ٢٣٠ م وأدخل فى ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أى ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم شاها ومازال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذى ولد لعهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز وهو الذى أرسل اليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام فرأى ذلك أمراً عظيما أن يدعوه عبد من عبيده زعم ليكون خاضعا لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل اليه ذلك الراعى ليرى فيه رأيه وحصل عندذلكأنقام عليه ابنهشيرويه فقتلهواستلب منهتاجالملك ولكنشيرويه لميتمتع بالملكطويلابل مات بعدسنةوتسعة أشهرمنولايته بعد أن أساء كثيرا إلى أهل بيته فولى من بعدهابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان فى ذلك الوقت من كبار القواد شهر بزار مرابطا بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولى أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملكإلا أنّ ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوما من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويزأخت شيرويه ولهاذكر حسن فى تاريخ الفرس وكانت ولايتها فى آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثمملكبعدها جشنسدهمنبنىعمأبرويزالابعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهى التى جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهزمن أصبهبد خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلا من عقب ازدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهرجشنس ولكن لم يبق ملكه

إلا أياما ومازال حالهم فى اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى فى العالم تناصى دولة الفرس فى سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الأمم الشرقية وفى مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية فى زمن القيصر تيودثيوس الذى ولى أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذى ولى من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨ ومازالت الملوك تتوالى على هذا الكرسى حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامى هرقل الذى كان قبل أن يتولى الملك واليا فى أفريقية ثم خرج على الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذى سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية فى نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لاتخمد فى هذه البقاع وكانت الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطىء بحر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الرومانى فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات ومايسقيان من تلك الأراضى الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الاسلامى ماحصل أولا من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتى أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة فى الشمال ومازالت جنود الفرس توالى فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف فى طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الافاعيل ثم أعادوا كراتهم فى عهد هرقل الذى خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا اسكندرية . وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة فى أول سورة الروم التى نزلت بمكة إبان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم فى أدنى الأرض) ثم قال مخبراً عمن تكون

له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون)

وقد حصل ذلك فعلا فإن هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم فى الوقت الذى كان المسلمون فرحين بانتصارهم فى بدر وقد كانت بدر فى مارس من سنة ٦٢٤ والروم فى ذلك الوقت يذيقون الفرس ماذاقوه منهم قبلا : ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى أورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هى التى أرسل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلى الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو فى ذلك الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد فى ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمرأن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لانها كانت مكان لهو وترف

هذا مجمل حال تلك الدولتين لاول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبوبكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الإبلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو فى شمال العراق وأمرهما أن يستنفر من قاتل أهل الردة وأن لايستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهوهرمز كتاب إنذار يقول له فيه أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء

بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهى من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم إليه وهناك عبأجيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلا للخبث تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز فى مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريبا من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذ ذاك كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينا هو قادم إذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار[1] وعسكر به فسار خالد إليه على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبرى بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفا يقوده الأندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الولجة[2] ثم اتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمى خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش فى هزيمته حتى مات فى طريقه عطشاً وقتل فى هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس[3] وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

(١) المذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهى قصبة ميسان
(٢) وهى من الشمال من المذار من أرض كسكر (٣) قرية من قرى الانبار

ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيشيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات باذقلى ينتهي إليه فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة: لما علم الأزاذبة مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيشيا علم أنه غير متروك فنهيأ لحرب خالد وقدم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتعجل خالد نحو ابن الأزاذبة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلى فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرفا على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن لاطاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتابا هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابني عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة [1] وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢: ومما يستطرف ذكره أن رجلا من الأعراب اسمه شويل كان أسلم على يدى النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطى من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فإنه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فإني سأفتدى منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترى فادنى قال لا إلا على حكمى قالت فلك حكمك فقال فلست لأم شويل أن نقصتك عن ألف درهم فاستكثرت

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التاريخ بالهجرة لم يكن إلا أيام عمر

ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال كانت نيتى غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد عل ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ بما يظهر وندعك و نيتك . ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتابا هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة وإنك قد نقبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج [1] إلى هرمز جرد [2] على ألفى ألف درهم وكتب لهم بذلك كتابا : ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم أمراء الثغور : وكتب فى مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك فارس والآخر إلى مرزابة الفرس وؤسائهم وصورة الأول - بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم فى أرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة: وصورة الثانى - (بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرزابة فارس أما بعد فاسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس فى ذلك الوقت فى ارتباك داخلى بشأن من

---

(١) فلاليج السواد قرأها واحدها فلوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من أطراف العراق

يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم فى ذلك الوقت إلا المدافعة عن بهر سير وهى إحدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى وكانت فى الغربى من دجلة أمام الإيوان الذى كان فى الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذا بن البندوان

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذى أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقى بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهى إلى الأنبار [1] وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالى الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا فى عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصلح على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر [2] وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له صدقت لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد فى تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب فى جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد فى الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالد هذا الكتاب :

---

(١) مدينة على الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة وهى على طرف البرية

من خالد إلى عياض إياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسيهم أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لاأحد أيمن طائرا منه ولاأحد فى حرب ولايرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل فى خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودى بن ربيعة ورؤساء القبائل التى جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بنى كلب لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمى وبعد أن أقام خالد قليلا عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين إلى الحصيد [1] والخنافس فأوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيح وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم نكالا ثم كانت له وقائع بالثنى [2] والزميل ثم فى الفراض وهى تخوم مابين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك فى رمضان وفى الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعا وكانت هذه الواقعة فى منتصف ذى القعدة ثم أقام بها عشراً وبعد ذلك أذن فى الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه فى الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجا معه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك مالم يتأت لدليل أورئبال فما توافى إلى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معا وخالدا وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجته إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبوبكر بذلك إلا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبى بكر بصرفه إلى الشام منصرفه منحجه إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذى أرسله إليه أبوبكر «سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك

---

(١) موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيه سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقربه الزميل

فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل مافعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك ابا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك ان تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء»

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من سنة ١٣ وقد فعل فى هذه السنة مالم يفعله قائد جيش : اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالى الأبلة إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرق الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم فى عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة ارادها وكان فى كل عمله فاتحا لامغيرا فإنه كان يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان إذا افتتح بلداً أقام فيه أميرا من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبى الخراج من أهل الذمة ومن أحسن مايؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان مايخرج طالباً رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة فى جبين تاريخه ومما يبين عظيم عمله ماقاله الهيثم البكائى . قال : كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهى أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون مابينها وبين الفراض مايذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتتاح العراق فإن أبابكر فى أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطانى وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التى يتولاها بعد

الفتح فجعل لعمر فلسطين وليزيد بن أبى سفيان دمشق ولأبى عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التى عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التى سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثون ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالأمر هرقل وكان نازلا بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأى ؟ فراسلهم أن الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأى واتعدوا اليرموك [1] ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبى بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلى كل رجل بأصحابه . بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة [2] وهى على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم وهو لهب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شىء ولا يخلصون إليهم للهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر فى شهر صفر فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيرا حثيثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبرى ٢٤٠ ألفاً

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلا

---

(١) واد فى طريق الغور يصب فى نهر الأردن

(٢) واد فى أرض حوران

عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى
لجمع الأمراء وخطب فيهم قائلا إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى
أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على
نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى وإن من ورائكم
لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى
من واليكم ومحبته ، قالوا فهات فما الرأى قال إن أبابكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا
سنتياسر ولو علم الذى كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين
مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله
الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء
الجنود ولا يزيده عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة
رسول الله هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خندقهم
اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الإمارة فليكن عليها
بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعدغد حتى يتأمر كلكم ودعونى اليكم اليوم فأمروه
فعبى خالد الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوساً
(فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أباعبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس
وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها
يزيد بن أبى سفيان وجعل لكل كردوس رئيسا يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة
أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلا عن الألف وجعل للجيش قاصا يذكرهم وكان
القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله إنكم ذادة
العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من
أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ماأكثر الروم وأقل المسلمين
فقال خالد ماأقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان
لا بعدد الرجال والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا فى العدد
(الأشقر فرسه)

وخرجت الروم فى تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال وكان
فيهما عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو ففعلا وكان القعقاع يرتجز :

ياليتنى ألقاك فى الطراد   قبل اعتزام الجحفل الوراد   وأنت فى حلبتك الوراد

يرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجوارى   أنى على عكرمة أحامى

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم الموسيقى فى تشجيع القلوب

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم فى مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم فى الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت فى البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فتهافت فيها على مايقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو فى رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين فى ذلك اليوم القدح المعلى فى الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبى جهل فإنه كان يقول قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ثم ينادى من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو فى وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحا وقتلوا إلا من برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء فى ذلك اليوم فى جولة وقتل من المسلمين فى اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الإسلامية وقال سلام عليك ياسوريا سلاما لا لقاء بعده

فى أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبى عبيدة قائداً عاما مكانه فأخذ خالد الكتاب

وأسره إلى أبي عبيدة ولم يذعه لئلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه فى كنانته حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة ومما يؤثر عن خالد فى هذا اليوم قوله : الحمد لله الذى قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلىّ من عمر . والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلىّ من أبي بكر ثم ألزمنى حبه

جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لابد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون أنّ ارتباك الدول التى حاربها المسلمون كان سبباً فى فوزهم هذا الفوز السريع : كان يمكن أن يكون هذا سببا لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان فى ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظما معبئاً أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أنّ الجندى المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين الأول ثقته بأنّ العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة : وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده الثانى أنه واثق بالعاقبة فى الآخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسنيين إما موت بعده سعادة وإما فوز فيه فخر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلى ذلك ماوقفوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت أمثالهم فى تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة فى تاريخ أبي بكر : وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التى حدثت بين المسلمين وبين دولتى الروم والفرس فى أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومى.

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذى لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ماوصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

إدارة البلاد فى عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هى البلاد التى تحت الإدارة الإسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل فى القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأنّ أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده :

(١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
(٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبى العاص وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبى أمية وهو الذى ولى فتحها بعد الردة
(٤) حضرموت وواليها زياد بن لبيد (٥) خولان وواليها يعلى بن أمية
(٦) زبيد ورمع وواليها أبو موسى الأشعرى (٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل
(٨) نجران وواليها جرير بن عبد الله البجلى (٩) جرش وواليها عبد الله بن ثور
(١٠) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمى

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها ولم يكن لأبى بكر وزير وإنما كان عمر يلى القضاء وأبو عبيدة أمينا لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفى عهده كتب القرآن لأول مرة فى مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً فى الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن فى مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبى بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلا تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم ولا بد لعيالى مما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذى فرضوه له فى السنة ستة آلاف درهم (= بالتقريب ١٢٨ جنيها مصريا) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئا وان أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده . فمن هذا يفهم أن المبدأ الذى اختطه أبو بكر هو أن الخليفة

لاينبغى أن يشغله شىء من التجارات عن النظر فيما وكل اليه من أمور العامة وانه يأخذ مايفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذى يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ فيه شبهة فى نظر أبى بكر فأمر برده إلى بيت المال

إرزاق الجند

كان الجند متطوعين لايجمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير مايناله القاتل من سلب القتيل وغير ماينفله رئيس الجند الممتازين وكان أبو بكر يسوى فى العطاء لايفضل أحداً على أحد

إرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطى العمال أرزاقهم ويوزع ما بقى على من عينوا فى الكتاب لمصارف الزكاة

وفاة أبى بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محموماً ١٥ يوما وتوفى فى مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ (٢٢ اغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلا إلى الجهة الشرقية

المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر - ترجمته - أول خطاب له - الفتوح فى بلاد الفرس بدء القادسية

٢ — عمر بن الخطاب

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين فى أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك مايعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائما بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلا للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم

وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرني عن عمر فقال ياخليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقا ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذاك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئا ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأى دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد) - ثم أغمى عليه فكتب عثمان - (فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبرى ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن استخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعى إلى الإسلام لم يكن في بدء أمره مقتنعا بصحة الرسالة فحاربه

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى التى كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامى وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصى بن وائل السهمى ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقنى وراء هذا الوادى ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقا لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل فى الإسراع ببيعة أبى بكر قطعاً للنزاع فى أمر الخليفة وخوفا أن يتشتت الأمر وكان لأبى بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضى وقد أفادته صحبة أبى بكر الأناة فى الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبى بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهى تنبىء عن سياسته التى ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل المواتى الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤلية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذى لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال

الفتوح فى عهـــد عمر

فى بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيبانى ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهى دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهربراز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطالب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبى بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعا لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر فى مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم.

ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يحجمون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء [1] المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره وولى أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحين — فكان أوّل منتدب المسير أبو عبيد بن مسعود الثقفى ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم إجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف . فصار أبو عبيدة بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة — كان الفرس فى ذلك العهد قد ولوا عليهم آزرميدخت ملكة واختارت هى رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاما للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبى عبيد

كان أول ماصنعه رستم أن كتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسى من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام فى النمارق [1] لما رأى ذلك المثنى ضمّ إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار إلى النمارق لحارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمننى وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فادخلنى على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبو عبيد مافعل الربعى ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ماترونى فاعلا معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر [2] لاجئين إلى نرسى فاجتمع إليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسى وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاؤوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم

(١) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق (٢) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطا خسر وسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونفيا وميسان ودست ميسان

بشىء يصيبه لا والله لايأكل مما أفاءالله عليهم إلا مثل ماياكل أوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيما يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلوذ النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة [1] موضع البرج والعاقول فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فاج وترك الرأى وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقيل وحمى المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنا فئة كل مسلم يرحم الله أباعبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكنا له فئة وحصل فى هذه الواقعة غلطتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه عن العبور فلم ينته والذى زاد تلك الغلطة تأثيرا ما فعله ذلك الرجل الأحمق عبدالله بن مرثد الثقفى من قطعه الجسر عند مارأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لاقدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولاأن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الأمداد إلى المثنى منهم جرير ابن عبدالله البجلى فى قومه من بنى بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا إليه حتى يقابلوه على البويب [2] وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران إلى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران إليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك فى رمضان وقد أمر المثنى

---

(١) على شاطىء الفرات الغربى تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بالإفطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلا يستوفز ويستنتل من الصف فقال مابال هذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرمح وقال لاأبالك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال إنى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب فى هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلا وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا فى الهزيمة سبقهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا فى البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ماقدر بمائة ألف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه فى قطعه الجسر وإحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت منى زلة لاينبغى إحراج أحد إلا من لايقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى فى أثر المنهزمين من اتبعهم إلى أن وصلوا إلى السيب [1] بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التى أوقعت الرعب فى قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لايمنعهم مانع ولا يقف فى وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوّب فى الجزيرة ويبث السرايا للإغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أنّ المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل فى جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم فى الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوما من أيامهم فى الجاهلية أحرقوا فيه قوما من بكر بن وائل فى غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم : كانت لعمر عيون فى كل جيش فكتب العين إلى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بنى تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا أنهما ماأرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

---

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سورا

أمر القادسية [1]

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أنّ الاختلاف الذى هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرازن وهما عظيما فارس والمستنافان فى أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأى وإن تعرضاها للهلكة مابعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا فى كل نساء كسرى وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لاى وجدا رجلا يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته وحينئذ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبار والمسالح والإبلة . بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذى قار [2] ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق فى المياه التى تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذاقار ونزل الناس بالجل [3] وشراف [4] إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضا إن كان فزع تم ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل فى ذى الحجة سنة ١٣ لاتدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التى طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف مابينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا إلى المثنى

---

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهى على جادة الكوفه

(٢) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط

(٣) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة بينه وبين القرعا ١٦٠ ميلا

(٤) بين واقصة والقرعاء ومن شراف إلى واقصة ميلان

فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار[1] فعسكر به ولا يدرى الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى فى أمارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذى يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم فى رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه فى رفق فقال استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يجيء رأى أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأى فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح وإلا عاد رجلا وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث إلى على وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم إن الله قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعا لهم أيها الناس إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد عليا وطلحة) وهذا الخطاب يبين ما كان يدور فى رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الأساس لذلك النظام . ثم أجال معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الأمة العربية فإن عمر لم يدع رئيسا ولا ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سلطة ولا خطيبا ولا شاعراً إلا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق

المحاضرة الثانية والعشرون

تمـام القادسية ــ فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال إذا انتهيت إلى زرود [1] فانزل بها فسار حتى إذا وصل إلى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه بني تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر . وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابتـه وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية وا كتب إلي بالذي يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ماأمر به فعدد الناس وعبأهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العرّاف فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلا من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجردانها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الأمير ويليهم أمراء الأعشـار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رؤوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبية وبإذن عمر وهـذا كتابه الذي أمره فيه بمبارحة شراف :

أما بعد : فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كؤودا لبحوره وفيوضه ودآدئه [2] إلا أن توفقوا

---

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة .

(٢) الدآديء ما اتسع من التلاع وهي مسايل الماء

غيضا من فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشدو الضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجالهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها جبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة . وكتب إليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول فيه — واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلية — فكتب إليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق [١] والعتيق وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح [٢] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى الحضوض [٣] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق [٤] والحيرة وأن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيض مياههم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى

---

(١) خندق سابور فى برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفا من شرهم وأوله من هيت يشق طف البادية إلى كاظمة مما يلى البصرة وينفذ إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعا لأهل البادية من السواد

(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقى الفرات وغربيه بساتين

إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإنّ الذى أعدوا المصادمتنا رستم فى أمثال له منهم فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاء مسلم إلى ماقدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر فى عافية - فكتب إليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالأمانة قوله له إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو وهزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو السان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شينا على المسلمين وسببا لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضى بذلك وقبل أن ينفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوما عليهم نجار ولهم آراء ونفراً لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ما جاء بهم ومادعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل أنا أجممنا كم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ إرسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم فى دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين سن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وأن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قتلناكم فقال يزدجرد إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونناإياكم لا تغزوكم فارس وتطمعون أن تقوموا لهم فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال

أيها الملك إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجاوبنى لأكون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ماذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأما المنازل فانما هى ظهر الارض ولا نلبس الارض ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئا إلا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له وأتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إنى أنا الله وحدى لاشريك لى كنت إذ لم يكن شىء وكل شىء هالك إلا وجهى وأنا خلقت كل شىء وإلىّ يصير كل شىء وإنّ رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ولأحلكم دارى دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتى ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك فقال كسرى أتستقبلنى بمثل هذا فقال مااستقبلت إلا من كلمنى ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لاتقتل لقتلتكم لاشىء لكم عندى ثم قال ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوّقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى

أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن فى تعبية كبرى وعدد جنده ١٢٠ ألف عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل فى مجالسه ماقاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فإنه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محاربا لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى اليوم فعلمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكره ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الأخبار إلى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب لحبوب كانت به فكان مقيما بأعلى القصر يشرف على الناس ويرمى بالرقاع فيها الأمر والنهى إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام فى الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التى كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبدالله الأسدى وهو يقول

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد لمت بيضاء صفراء اللبب　　مثل اللجين إذ تغشاه الذهب

أنى امرؤ لا من يعينه السبب　　مثلى على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهى علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد ببنى أسد وكان لهم فى ذلك أعظم فخار ولرئيسهم طليحة الأسدى ولم يكن للمسلمين حيلة فى الفيلة هذا اليوم إلا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها فنفس عن بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر فى صفوف الفرس فى هذا اليوم ويسمى يوم إرماث

وفى اليوم الثانى نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التى أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاؤا بالإبل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل فى اليوم الثانى مالقيت جنود المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفى اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول فانتدب لأكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما فى عينى الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمى به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب فى العتيق فتبعته الفيلة فخرجت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين ومازال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله ومازال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع فى الناس

يقول لهم إن الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهى درفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم إلى ماوراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لامع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب (أمابعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤن مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لايشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم).

كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان فى كل يوم يخرج متنسما أخبارهم من حين يصبح إلى انتصاف النهار فيرجع إلى أهله ومنزله وفى اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال ياعبدالله حدثنى قال هزم الله العدو وعمر يجرى وراءه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لاعليك يا أخى فقرئ كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض) ثم كتاب آخر يقول فيه (إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب

علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أنّ أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فإنا فى أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر فى الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أنّ الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً وإنّ من ادّعى فصدّق أو وفى فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شاؤا دعوهم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكتب عمر جواب الكتاب الأوّل يقول

(أما بعد فإنّ الله جلّ وعلا أنزل فى كل شىء رخصة فى بعض الحالات لافى أمرين العدل فى السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه فى حالة ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ولافى شدّة ولارخاء وإن روّى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن روّى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشىء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب فى الأرض فلا تصدّقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم وأبلغوهم مأمنهم) وكتب جواب الكتاب الثانى

(أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادّعى ذلك وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم فى أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) ـ فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم مما جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده إلا أنّ خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا فى الصلح ما كان لآل كسرى ولاما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهى والصوافى الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر

السواد ذمّة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رؤس الرجال على ما فى أيديهم من الحصة والأموال - ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوّب معهم لأنه كان متفرّقا فى السواد فكان يليه لأهل الفىء من وثقوا به وترضوا عليه

كان عمر يتخوّف أن يؤتى المسلمون من جهة الأبلة لأنها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلى الأبلة لتمنع إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبلة وهى مرفأ فارس على خليج عمان الموصل إلى بحر الهند وكان فتحها فى رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيما تفصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير إلى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان فى العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلعبن به فى زرود وذى قار وتلك الأمواه حين أمروا بالسير فى جمادى إلى القادسية وكان كلاما أبدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادى ورجب شىء

العجب كل العجب   بين جمادى ورجب   أمر قضاه قد وجب

يخبره من قد شجب   تحت غبار ولجب

ثم إن سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرسانا مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم فى سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربهم حربا غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا إليهم وهزموهم فى أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر. فأقام سعد ببابل أياما ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهى المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى وتلاحقت به الجنود وفى مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضى منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن بركتها مقاتلة العدو وعبرت إلى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد ببهرسير أنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة

الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فإن الفرس كانوا قد ضموها إلى الشاطئ الثانى وكان سعد قد أعد فصيلة تحمى الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضا والذى جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل ما فى المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربا على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالى المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين) وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة فى المدائن فى صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما فى خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئا كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنى عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من النجائب شىء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شىء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعا فى مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالأرض المزروعة والأرض المقبلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشباه ذلك ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا علىّ فى هذا القطف فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فر رأيك إلا ما كان من على فإنه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبى وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولى النعمان وسويدا ابنى عمر بن مقرن الخراج الأول على ما سقت دجلة والثانى على ما سقى الفرات

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز - غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس إلى جلولاء كانت هى مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب وإلى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبدا وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإن كان لنا فهو الذى نريد وإن كانت علينا كنا قد قضينا الذى علينا وأبلينا عذرا فحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازى وأقام يزدجرد فى حلوان وصار يمدهم بالرجال والأموال فأقاموا فى خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا طرقهم فأرسل سعد بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشا أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن فى صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) فى اثنى عشر ألفا حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم فى خندقهم واقتحامه فصادفوا فى سبيل ذلك حربا هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصدا الرى فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطا لأنها هى الثغر الذى يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر فى ذلك الوقت أن يقتصر على ماملكوه من سواد العراق وقال فى كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدا لا يخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد وإنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفىء مع زياد وكان هو الذى يكتب للناس ويدونهم

فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به فقال والله ماعلى وجه الأرض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لاأقوى على هذا من غيرك فقام زياد فى الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجرلهم ماأجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتبت اليك فى قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية فى غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبدالله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوما تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفا فى جميعها يظفر المسلمون وفى أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فأجابوه إلى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا إلى الأبواب التى عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ماأعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان[1] فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء[2] يقودها عمر ابن مالك فافتتح فى مسيره هيت[3] وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء

وبذلك صار السواد كله فى يد المسلمين فمهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة فى الثغور بينهم وبين الجبال

---

(١) كورة بها عدّة مدن منها أريوجان عن يمين حلوان للقاصد إلى همذان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور فى الفرات فهى مثلث بين الخابور والفرات

(٣) بلد على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى فى أوجههم تغيرا فقال عمر (والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرنى ماالذى غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إليه سعد إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب إليه عمر إنّ العرب لايوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربى الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جندا ممن رضى الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين فى خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتا من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن . جعل على بناء المدينة أبا الهياج ابن مالك الأسدى وأوضح مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شىء وفى القطائع ستين ذراعا

فأول ماأسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام فى وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى فى مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت الأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مئتى ذراع وجعل فيها بيوت الأموال والذى بناه له فارسى كبناية الأكاسرة فى الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذى وضعت عليه الكوفة ينبىء عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفى هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهى وإن نزلها المسلمون

سـنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا فى السنة التى اختطت فيها الـكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس فى الزمن التى مصرت فيه

وكانت ثغور الـكوفة فى ذلك الزمن أربعة حلوان (١) وماسـبذان وقرقيساء والموصل (٢) وأميرها سعد بن أبى وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الـكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولـكل منهما جنود خاصة

فتح الجـزيرة (٣)

فصلت من الـكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداها يقودها سهيل بن عدى لفتح الرقة والثانية يقودها عبـدالله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمرعمر إن كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصـدين أبا عبيدة بحمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى كورته فكان فى ذلك تخفيفا على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فإنهم لما رأوا الطالب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا فى أرض الروم وبعـد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لاتنفروا العرب بالخراج ولـكن ضعفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيـكون جزاء فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا إلى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

---

(١) فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقى نينوى وهى من المدائن الإسلامية الـكبرى

(٣) مابين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين سنجار والخابور وماردين وآمد وميا فارقين والموصل وغير ذلك

فتح الأهواز [١]

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهومن سادات فارس وعظمائها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان

ثم كاتبهم الهرمزان فى الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ومهرجان قذق [٢] ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف فى حدود الأرضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالأكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الأهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الأهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان فى الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلا فأخبرنى أ أن ظلمت الذمة المظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم إذا انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصرا

---

(١) مجموع كور عدها ياقوت عشراً وهى سوق الأهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندى سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر

(٢) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحى الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همذان فى تلك الجبال

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمى أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يبارى سعد بن أبى وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود مايلى السواد سر العلاء أن يصنع شيئا فى الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة مالسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فتسرعوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً فحماهم فى البحر بغير إذن عمر وكان عمر لايأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا: عبرت تلك الجنود فخر فى جو اصطخر [1] وبإزائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرك الفارسى قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا فى موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله . أمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . كتب عمر إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا فى اثنى عشر ألفا وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم فساحل بالناس لايلقاه أحد فى طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه . خلصوا إخوانهم وهذه هى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا فضل نوابت أمصار ثم انكفئوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين إلى بلادهم من طريق البصرة .

ولما أحرز عتبة الأهواز وذال فارس استأذن عمر فى الحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات فى بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائرا لقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة ابن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

---

(١) مدينة كبيرة لفارس وهى قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول ازدشير إلى جور

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزد جرد يثير أهل فارس[1] وهو بمروف كتب اليهم يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والأهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب أمراء الثغور إلى عمر فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبى موسى الأشعرى وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً إلى الأهواز يقوده سهل بن عدى وأمير الجندين معا أبوسبرة بن أبى رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى إذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها فترك رامهرمز وألحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود إلى تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل فى الحصار جماعة من ذوى النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالا وفى آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد فنهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلى القلعة ولما رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيه وقال أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسرهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لأخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبوسبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على عمر وهو فى المسجد نائم ودرته معلقة فى يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغى أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الأنبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الأهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال ياعمر إنا وإياكم فى الجاهلية

---

(١) فارس اسم لولاية واسعة وإقليم منيع أول حدودها من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) أردشير (٣) دارأبجرد (٤) سابور (٥) قبادخرة

كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فى قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لى فى الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر إنى قاتلك قال قد أمنتنى فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين آمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم ففرض له فى العطاء على ألفين وأنزله المدينة

ثم قال عمر الوفد لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا وأن ملك فارس حىّ بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحائها جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جنوبى همذان فكتب عمر إلى النعمان

---

(١) مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخاً وهى أعتق مدينة فى الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهى ما بين أصبهان

ابن مقرن يوليه محاربه المجتمعين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيما متحصنا فى حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شاؤا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى فى الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لا يخرجون إلا أن يشاؤا وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق بالذى هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبى وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدى فقال أرى أن تبعث خيلا تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم إنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربى المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديداً وفى أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح فى بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التى تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالألوية إلى أصحابها وهم :

إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

(١) الأحنف بن قيس التميمي ووجه إلى خراسان (٢) مجاشع بن مسعود السلمى ووجه إلى أردشيرخرة وسابور (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه إلى اصطخر (٤) سارية بن زنيم الكناني ووجه إلى فسا ودرابجرد (٥) سهيل بن عدى ووجه إلى كرامان (٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى سجستان (٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان(١)

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جىّ والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا نقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لى فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل علىّ وإما أن أحمل عليك فقال أحمل فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوى على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضى أهل جىّ بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان فى حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جىّ واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجىّ خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدى

فتـــح أذربيجان (٢)

بينا نعيم بن مقرن فى همذان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم فى واج روذ بين همذان

---

(١) إقليم من نواحى الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية (٢) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقا إلى أرزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة

وقزوين فسار إليهم وقاتلهم فى ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتـــح الرى [1]

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار إلى الرى فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزبنى بن قوله وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن إلى قومس فسار إليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملك جراجان [2] بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب [3]

كان قائد الجيش الذى وجه إلى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهربراز مستأمنا ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لاينسبون إلى أحساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج فى شىء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوقى رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولابد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه وكان فى كتاب صلحهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء

---

(١) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسب إليها رازى (٢) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٣) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهى ثغر عظيم

والدلالة والنزل يوما كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به - وهذه سنة حسنة فى عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين فى الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

فتح خراسان (١)

كان يزدجرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقى من الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصغد وملك الصين أما الأحنف فاتجه إلى مرو الروذ حتى إذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر بمن معه فى أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده : ولما عبر يزدجرد النهر أتته جنود مدداً من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما حس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاقدوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكاسرة فكانوا كأنما هم فى ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتوح أهـل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ثم فتح فساودارابجرد وفتح عثمان بن أبى العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدى كرمان : وفتح عاصم بن عمرو سجستان ، وفتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران

ومما يستظرف من الأخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعى فإن عمر ولاه قيادة جيش

(١) بلاد واسعة فى شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التى دونها نهر جيحون

لمقاتلة الأكراد فسار إليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئا من حلية فقال إنّ هذا لايبلغ فيكم شيئا فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإنّ له برداً ومؤنة قالوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية فى سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت إليه قال اجلس فجلست فى أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفأ ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعه فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها وإذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت إليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا فقالت إنى أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أوما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلا وطعامى الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه مايتلبس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بعس من سلت فقال أعط الرجل قال فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس قال مرحبا بسلمة بن قيس ورسوله حدثنى عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدى اليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده فى خاصرته ثم قال لاأشبع الله إذا بطن عمر ثم قال ماجئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت مابارك الله فيما اختصصتنى به اقسم هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وإياك فاقرة فقسمه فيهم

ولست فى حاجة إلى أن أنبهكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهى تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى فى بيت أمير المؤمنين وكانت

المرأة تتكلم فى شأن نفسها كما يتكلم أعظم فى الرجال نفسا ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شىء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض إلاأن يردها عليهم فكيف لاتكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب وإلى هنا انتهى مانريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائيا بين أيدى المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندى ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك فى زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم فى جميع المواقع التى زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فإنهم لم يكونوا يتهاونون فى أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائما وعرفوا بالعدل فى حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق والمدنية فى عهد عمر عند الفراغ مما كان فى أرض الروم

تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

فهرست الجزء الأول

من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تمت فهرست الجزء الأول